
قصص
محمد أبو السعود
مرور عابر
دار ليلى كيان كورب
للنشر والتوزيع

۲۳۷۹۰۸

مرور عابر

محمد أبو السعود

كيان كورب للنشر والتوزيع
دار ليلى

الكتاب:

مرور عابر

المؤلف:

محمد أبو السعود

★★★

الغلاف:

محمد محمود

★★★

الإشراف العام:

محمد سامي

★★★

المهندسين-23 شارع السودان–تقاطع مصدق-الدور الرابع–مكتب 11
هاتف: 33370042 (02) (002) - 23885295 (012) (002)
البريد الإليكتروني: mail@darlila.com الموقع الرسمي: www.darlila.com

محمد أبو السعود

مرور عابر

دار ليلى كيان كورب
للنشر والتوزيع

أحجار الطريق

قالها بصورة قاطعة وبنبرة غاضبة :

– يستحيل.. يستحيل أن أزوج ابنتي من عامل نظافة.

– يا عمي أنا خريج كلية الآداب وما ذنبي أنا.. هو قرار رئيس منتخب.

قام من مقعده ملوحًا :

– هذا قرار بائع خضراوات فليذهب إلى الجحيم هو وكل من أيَّده.

– يا عمي صدِّقني.. إنها فترة مؤقتة وسأنتقل بعدها إلى عمل آخر..ما ذنبي أنا؟!

– قلت لك يستحيل.

و توجه نحو الباب قاطعًا عليَّ فرصة استكمال قهوتي فوضعتها وخرجت.

كان الجميع في حالة غضب جامع وقد لاقت قرارات الرئيس الجديد اعتراضات هائلة لاسيما والقرار المتعلق بمناوبة جميع الأفراد على العمل في مجموعة كبيرة من الوظائف الحكومية الاعتيادية الروتينية، فالشاب عليه أن يعمل فترة لا تقل عن تسعة أشهر في كلٍ من وظائف : تحصيل فواتير الكهرباء وجمع القمامة وحفظ الأمن وتجميل الحي والمراقبة المرورية والأعمال المكتبية في الوزارات وفي هيئة الأحوال المدنية وفي غيرها وغيرها وبحد أدنى خمسة وظائف على الأقل قبل أن يتم إحالته إلى عمل دائم.

و لم يستطع الجميع أن ينسى أن اختيار هذا الرئيس في الانتخابات كان بمثابة تلقي أخف الضررين مما زاد من امتعاض الأغلبية واستخفافهم

بالقرارات.

كان هدف ذلك القرار هو تقليل أعداد العاطلين وتحسين وضع تلك المواقع الخاملة ومحاربة الفساد والاعتمادية وتحقيق القليل من العدالة الاجتماعية..و قد كان الأمر بالنسبة لي محض سخرية فمن كان بالأمس موظفًا محترمًا في هيئة الآثار مثلا تراه تحول إلى مراقبة السيارات في الشوارع في اليوم التالي ومن كان يجمع القمامة منذ شهر تولى بنفسه تنسيق وهيكلة إحدى المدن!

بالطبع لم يكن هؤلاء "المتنقلون" يتولون مناصبَ كبيرة أو يكونون في موضع أصحاب القرار لكن يشاركوا فيما هو اعتيادي وروتيني في معظمه.

الأمر حتميّ فماذا علي أن أفعل؟! عمومًا لم أكن لأدع ما حدث في منزل ندى وما كان من أمر والدها يمنعني من حضور تلك الحفلة المخصصة لتكريمي على ما فعلته في تلك الحادثة التي وقعت منذ شهرين.. أمر آخر مثير للسخرية، منذ شهرين كنت أعمل ضمن قوة الشرطة في حي المنصورية – أحد الأحياء المعدمة – وكان قد تم توزيعي على إحدى لجان حفظ الأمن في شارع مكرم عبيد حينما اختطف أحد الحمقى حقيبة سيدة في منتصف الأربعينات وانطلق يعدو فما كان مني إلا وانطلقت في أثره، ولولا أني صاحب لياقة بدنية لا بأس بها لهرب ذلك المجنون، فلم يكفه أنه استمر في العدو مسافة ثلاثة كيلومترات كاملة.. بل صارعني بضراوة من أجل

الحقيبة فترة..النهاية كانت لصالح العدالة بعد اللهاث وقيدته إلى أحد أعمدة الإنارة وأعدت الحقيبة، ولمثل هذه المجهودات كرسوا جوائز مالية واحتفال بسيط وحضرت.

أذكر أني بعد تلك الحادثة بالضبط استقر رأيي على التقدم لخطبة حبيبتي ندى ولم أكن أتصور أن يرفض والدها لسبب من هذا النوع.. يا له من متحجرٍ.

استمر الوضع على ما هو عليه، برغم الاعتراضات أكمل الرئيس خطته ولعميق حبي تقابلنا أنا وندى في كل مكان تقريبًا.

و مرت أشهر ولم تستطع إقناع والدها بمقابلتي ثانيةً فقد اعتبرني من مؤيدي الرئيس الجديد – مستحق اللعنة – وأمرها بالابتعاد عني ونسيان الأمر حتى بعد أن أنهيت خدمتي في وظيفة جمع القمامة.

في أول يوم لي في عملي الجديد كأمين مكتبة في أحد قصور الثقافة بالمحافظة زارتني ندى وربما لاحظت سعادتي بالعمل الجديد فشجعها ذلك أو ربما لسبب آخر وبينما كنت أُريها أحد الكتب الخاصة بتاريخ الرؤساء العرب في أحد أركان المكتبة وضعت يدها على صدري في تحنان جميل وقالت :

– قبّلني.

هذا الشاب

أرسل إليَّ يخبرني أنه يعاني من مشكلة كبيرة وأن حياته مهددة وأن موقفه يتوقف على رأيي ومشورتي.. قال أنه يحبَ فتاة حبًا شديدًا وأنه يكابد إليها أشواقًا عظيمة وأنها بدورها تحبه جدًا وأسهب في الشرح — واجتهدت في الاختصار — بأنه لا يفكر بالكليةِ إلا فيها ولا يتولد لديه رغبة في الحديث إلا معها وأنها كذلك مثله وأوضح أنه يشتهيها ليل نهار.. يرسل خياله في تفاصيل جمالها في حركته وسكونه في يقظته وحلمه لا يوقفه شيء وأنه يعاني شوقًا لرؤيتها اذا غابت يماثل الألم ويقارع الحمى وأما المشكلة فهي أنه لا يمتلك الإمكانيات التي تسمح له بزواجها ولا حتى بعد حين وأن أهلها لن يقبلوا به ولو ساق إليهم أحبار الأرض ورهبانها فضلاً عن أئمة الإسلام أجمعين.

يبدو الأمر مكررًا وعاديًا، حاولت أن أشرح للمرسِل أني لا أستطيع مساعدته بأي حال وأن مشكلته ليست من اختصاصي وأن المقال الأسبوعي الخاص بي في الجريدة لا يتناول مثل تلك القضايا لكن ربما أسأت الفهم.

فبعد يومين أرسل إليَّ ثانية يخبرني أنه لم يطلب سوى رأيي ولم يبحث إلا عن الحكمة وشرح لي أنه يواجه مشكلة أخلاقية عظمى تتمثل في قدرته على الاختلاء بمحبوبته بشكل كامل ونيل رضاء قلبه ووجدانه منها مشيرًا إلى ضعفها هي أيضًا تجاه أشواقها لكنه لا ينتوي ذلك — برغم القدرة — لتدينه المتأصل فيه وإن اعترف بالوهن الذي أصاب عزيمته إلا أنه لا يرضى أن

ينقطع خيط المدد الرباني بارتكاب كبيرة.. وما برح يخبرني أنه شاب طيب القلب طيب السريرة لا يريد إلا من يحب.. لقد احترت كثيرًا بعد رسالته تلك وخاض قلمي معركة عصيبة ما أدمت ورقي بالكلمات المطلوبة ونازعتني نفسي إلى تجاهل الشاب.. لكن أرسلت له في النهاية ما اختذله عقلي في سطرين أو ثلاثة أعلمه فيها بأن الصبر مفتاح الفرج! وبأن شبابًا كثر على شاكلته وأن رحمة ربه خير.. ربما كان الأمر أكبر.

في رسالته الثالثة عبّر لي عن حبه الشديد لكتاباتي وكتبي وزاد عليه حبه النقيّ لذاتي وشخصي وأنه يرى فيَّ تجسيد لروح الخير وحب الحكمة..

وشكرني على اهتمامي وردودي ولم يخجل أن يخبرني أني ما ساعدته..

وأوجز حالته ووضعه – وبعيدًا عن السالف ذكره – بأنه مكتئب لأقصى حد وحزين الروح نحيل الهيئة يعمل ما لا يحب مع من لا يحب ويأخذ من المال ما لا يقيم.. وأنه في أشهره الأخيرة فقد اهتمامه بالتلفاز وأخبار الوطن ثم تلى ذلك فقد الرغبة في الحديث والاستماع ثم ما لبث أن أهمل العائلة و أنعدمت رغبته في الخروج من المنزل – بخلاف العمل – وأنه أحب الانعزال عن الناس وآثر الوحدة و بالرغم من كل ذلك أكَّد على متابعته لكل حروفي، من هذا الشاب ؟ وما تلك الحكاية ؟ وكيف تبدو كلماته على ذلك القدر من الصدق والعمق؟لقد حصل بعد رسالته تلك على كل تعاطفي واهتمامي وبث العجز في كل ضلوعي وتكناتي.. لقد طرح أصدق الأسئلة عن

مصداقية الكاتب ومدى نفعه لقرائه ومريديه وحبسني في سجن نسيجه الشك وسجّانه عذاباته وأنّاته، وأنتكس قلمي وفكري ولم أفق إلا وقد وجدتني أعتذر عن تقديم مقالي الأسبوعي ولكم قضيت من الوقت أفكر في حال الشاب وما سرَّبته إليَّ كلماته من الحزن والألم والتي سرعان ما أتمها بخطاب رابع!

قال فيه أنه قد ساءه جدًا غياب مقالي هذا الأسبوع وأنه يشتاق لكلماتي كما يشتاق لحبيبته وأخبرني أنه على وشك ترك عمله بلا أدنى فكرة عن وجهة جديدة أو مصدر رزق آخر ومنكرًا لبعض أحاسيس داخلته عن رغبة في الموت أو إنهاء الحياة وقد ذيّل خطابه المختصر بالسلام لأول مرة، قضيت أيامًا بعد ذلك أعاني الأرق و" تلبس الحالة " — حالة الشاب طبعًا — واستجمعت شتات فكري بعد مشورة زوجتي وأجمعت أمري على مقابلة الشاب ومساعدته بعد كل ما كان وأرسلت إليه أطلب منه مقابلتي محددًا الزمان والمكان مشيرًا إلى رغبتي في بذل كل الجهد والمال والوقت لحل أزمته لكن لم يأتِ في الموعد ولم يرسل ثانيةً أبدًا.. وبالرغم من استعادتي لحياتي بعد حين بل وازدهار أفكاري من وقتها تقريبا إلا أنه تركني حائراً — في ليالٍ كثيرة — أتسائل عن مصيره ."

المرة الأخيرة

اليوم هو ثانى أيام شهر رمضان وعن الشهر الميلادى فهو شهر يوليو قمة الحر استيقظت في الواحدة ظهرًا متأخرًا كثيرًا عن كلمة باكر التى نمت عليها ليلتى..اليوم قد يكون المرة الأخيرة التى أراها فيها، سوف تناقش مشروع التخرج في الكلية وتصبح مهندسة، هى زميلة الدراسة لكن في قسم آخر.

وصلت الكلية في الساعة الثانية تقريبًا ولحظة نزولى من السيارة كنت غارقًا في عرقى.. ساحة الكلية فارغة تمامًا إلا من بعض المهرولين إلى مبانى الأقسام هربًا من لفحات الصيف الحارة الملتهبة.

الحراره تأتى من داخلى أيضًا.. المئات من الأحاسيس كلها قوية عنيفة تصرخ بأنها مهمة بأنها حقيقية وشعورى زعيم عصابه وله رجال لا تعصيه هى الأفكار التى يخلقها ويرسلها تسخط على عقلى وعلى صبرى وعلى خطأى..حتى عليك، عشرات الانفعالات في موقف واحد وفى ساعة واحدة كلها تطلب تفسير تطلب نتيجة ولا يطردها إلا الجديد منها ولا يصمد طويلاً جميلُها.

فتاتى كل ما فيها جميل..أرستقراطية أنيقة وقوية الشخصية، بنية العينين لها ابتسامة تنقلك لعالم آخر كله بهجة ونظراتها مخيفة درستها، كثيرة هى تخيلاتي عنها وليست الحقائق فأنا في عالمها غير موجود، حاولت الاقتراب ولكن غير مهتمة حاولت أن أشرح لها إعجابى بها ولا تقبل أو لا تريد..أحب أن أراها وأحب أن ترانى وكتبت شعرًا بلا مقابل ولا أمل وفى

كل مرة أراها أرى حزنى يتدلى من إسورة قميصها..نعم أحبها.فما الحب إلا إحساس.

اعتقدت عندما استيقظت أنى تأخرت وربما الأفضل أن لا أذهب فرؤيتها لن تغير شيء وقد تُزيد حزنى لغيابها المحتم، زحف إلىّ كسل عن الذهاب في هذا الحر الصعب لكن دائمًا ما تطلب أحاسيسى نتائج لا أنفذها فأنا إنسان آلى ويحركنى شيء ما.. نكدًا ومهمومًا هذا كان شعورى لحظه دخلت القسم الخاص بها وتوقفت عند الباب، المكان شبه خالٍ ووجودى كان مستغربًا من القلائل الذين يعرفوننى ويعرفون أنى أدرس في قسم آخر ومستغربًا أيضًا من الذين لا يعرفوننى نهائيًا، هى في المعمل وهو مغلق الأبواب ولا أظنها تخرج وأنا حبيس لا أستطيع دخول المعمل الخاص وكيف أدخل؟نعم حبيس في سجن كبير هو كل العالم دون معملها.

خرجتُ وذهبتُ إلى مبنى القسم الخاص بى وصعدت إلى المكتبه لأنتظر قليلاً..المبنى كان شبه خالٍ أيضًا.

فى المكتبة بدأ عرض من المسرح التراجيدى..يُرفع الستار والمسرح مظلم تمامًا ثم تسقط بقعة من الضوء في منتصف المسرح حيث تكشف عن وجود البطل، ثابت تمامًا بلا حركه ورأسه منكّس ونظرته مثبته إلى الأرض ثم تدخل فرقة من الرجال غير واضحى الملامح من الجانب الأيمن ويقتربون من البطل ويصرخون : " أتعتقد أنها تهتم لوجودك؟ أتعتقد أنها تهتم إذا رأتك؟لا فأنت نكره أنت لا شيء..قد بيّنت لها حبك وتجاهلتك..أنت واهمٌ غبى لو

كانت تحبك لأهتمت برؤيتك كما تهتم أنت..هيا هيا غادر" ويمسكون عندها بذراع البطل ويشدوها إليهم بقوة ولا يتحرك هو وعندها ينقطع صوتهم وتدخل فرقة تلبس عباءات بيضاء من الجانب الآخر ويحملون في أيديهم مشاعل مطفأة ويهمسون : " انتظر لا تغادر..ربما تفرح برؤيتها من قال أنها لا تهتم؟.. كيف تتجاهلك وأنت تحبها وتخبرها أنها جميلة ومهمة وغالية حتى ولو بنظرتك حتى ولو بوجودك، ربما هى مهتمة ولا تصّرح، ربما يجب أن تفعل المزيد" ويمسكون بذراع البطل ويجذبوها في رفق مؤثر ولكن لا يتحرك البطل على الإطلاق.

فجأة يدخل من الخلف جماعة يمسكون بحراب ويجرون نحوه ويصرخون " أنت وحيد..ليس معك أى أحد، نحن أصدقاؤك وأعوانك " عندها يصرخ البطل: " لا لا لستم أعوانى ولا أصدقائى " فيقتربون منه ويطعنونه بحرابهم في ظهره فيسقط على ركبتيه وذراعيه في الهواء إحداها في أيدى الفرقة اليمنى والأخرى في أيدى الفرقة اليسرى ورأسه متدلى إلى صدره وقلبه يائس ويسود صمت قصير.

ينشق المسرح عن رجل عجوز قبيح الوجه يدنو من المعذب الوحيد ويمسك بقميصه ويقول : " أنت مازلت طالب، مستقبلك جنين في بطن الغيب وما حققت نصف المطلوب، هل ترضى بك فتاتك الارستقراطية الجميلة..كيف تجرؤ؟"

يصرخ البطل " لا.. لا ساعدنى إلهى أنقذنى " فيرد العجوز : " لا تطيع الله

وتطلب عونه كم أنت وقح، عندما لا تحتاجه تعصيه وتُبعده وعندما تضعف تناديه وتسأله " فيرفع البطل وجهه إلى العجوز الذى يخرج من خلف ظهره سكينًا يمسكه من البداية ويطعنه في صدره بلا كلمه!

تسدل الستائر..و أستشعر الضوء في عينى وأنتفض في أحد كراسى المكتبة الغارقة في الصمت.

الساعة الآن الرابعة إلا دقائق عشر أو ربما أكثر..غادرت المكتبة إلى قسمها من جديد، الحال كما هو هناك أخذت أمرُّ جيئة وذهابًا أمام المعمل وأنا ملتهب ومختنق بالوحده واليأس ومظلل بالتردد والحيرة، لكن تبدد كل ذلك عندما رأيتها من النافذة الزجاجية الصغيرة للباب المغلق انهزمت غيومى المتكاثفة وسطعت الشمس، رأيت وجهها الدائرى الأبيض ورأيت ابتسامتها الجميلة وعينيها المضطربتين ولا أعرف السبب.. رأيت ثوبها البنى الأنيق كالعادة، مررت في لحظة حتى إنى لأشك إذا ما كنت رأيتها فعلًا أو تخيلت كل ذلك.. جلست على السلم قليلًا ثم ذهبت للصلاة في المصلى الذى يجاور المعمل، بعد الصلاة تمددت على ظهرى وأغمضت عينى لأستريح ثم سمعت أصواتًا متزايدة في الخارج.. نهضت وخرجت من المصلى ووقفت على أول الممر أنظر، جميع الطلبة خرجوا وهى معهم في صالة المبنى، الكل يضحك في سعادة وهى تحدّث زميلتيها في إثارة لحظة نجاح. تقدمت نحوهم.. الكل منشغل لم يلتفت منهم أحد إلىّ، بعضهم يصخب وبعضهم يتهامس في نشوة ومنهم من يلتقط الصور، هى كانت تضحك

ضحكة جديدة رُسمت للتو بلون سائل لم يجف بعد، هى ببساطة كل ما أتمنى وكم يتحسر قلبى أنى لم أعرفها ولم أحدّثها حديث القلب ولم ترَ شعرى لها، كنت أتمنى أن تأخذنى إلى عالمها وأن أعش حياتها الخصبة المريحة المرحة، اقتربت منها ولكن عينيها شاردتان بعيدتان عن عينىّ قلت لها "مبارك التخرج" لكن لم تلتفت ولم تسمعنى وحدقتُ في قرط أذنها اللؤلؤ الجميل وعدت أقول "مبارك" لكن لم تلتفت وكأني خيال غير موجود، تحركَت ومرَت بجوارى وكادت أن تلمسنى وامتلأ أنفى بعطرها الجذاب المتأصل في السحر وأخذت أملأ صدرى منه لعله يبقى قليلاً.

نظرت إلى الجمع فلم أجد أحدًا حولى.. نظرت مره أخرى إليها فوجدتها بعيدة هاربة وحاولت أن أحرك ساقىّ فوجدتها ثقيلة مددت يدى أمسكها لكن فارقت، انتفضت وجفلت عيناى ورأيت سقفًا فوقى ورأيت جسدى مازال ممددًا على الأرض في بطن المصلى في سكون وفى عطش مميت.

نهضت في قمه التعب خائر القوى ومحطم العزم خرجت من المصلى ومررت أمام المعمل.. مازالوا هناك، هبطت السلم وعادت سطوة الإنسان الآلى على كيانى، كان مع الآلى أمر بالمغادرة في طور التنفيذ رغم تعبى وحزنى ورغم شوقى الذى لم ينطفىء ومع يقينى بأنها المرة الأخيرة.

حبيبتي

(1)

بلا خجل أخبرها أنى أحب تقبيل أنفها كثيرا وأحب تقبيلها فوق الحاجب، وأخبرها أنى أحاول مراراً أن أنسج مشاعري لها شعراً ونصوصاً بلا نتيجة وأنها في قلبى أكبر من الكلمات، وفي عقلى وفي فمى وفي عينى أكبر وأشمل من كل حدود الوصف.

" تذكرين حبيبتى يوم ذهبنا إلى السينما سويًا وكيف وضعتى رجلكِ فوق رجلى ويدك في يدي، هل أخبرتك أنى تركت مشاهدة الفيلم لنصف ساعة والتفت إليكِ منتبهاً ومتأملاً كل تعابير وجهك الرقيق الجميل وانتِ تتابعين الفيلم، هل أخبرتك أنكِ أنقى من شعاع الضوء المنبعث من خلفنا"

بلا خجل أخبرها أنى أعشق قدميها ورسم أناملهما وأعشق تلك الحمرة التى يتورد بها وجه قدميها دومًا، مراراً أخبرها أنها تمنعنى من العمل ومن اللهو ومن الكتابة، وتمنعنى من النوم أحياناً إذا ما غاب صوتها الرقيق.

" هل أخبرتك يوما حبيبتى عن معنى اسمك؟ من المؤكد أنكِ تعرفين، هل قلت لكِ أنه فارسى الأصل؟ هل أخبرتكِ أنكِ تمثلين كل ما هو رقيق كاسمك؟ صوتكِ ووجهكِ ويديكِ وملمسكِ، بل تتركز الرقة حقيقةً أكثر في حركاتكِ وأفعالكِ"..

(2)

تخبرني أنها تشعر أني غريبٌ عنها فأذهل وأتعجب وأُنكر في صمت تاركاً لها فرصة إخراج ما بداخلها لعلمي أنها شديدة التكتم فيما يخص

مشاعرها.. أخبرها أني شديد الحزن هذه الأيام وربما كان هذا هو السبب..

تقول : لا

"هل تذكرين حبيبتي تلك الفترة التي كنا نتابع فيها " عمر وإيلين " – مسلسل تركي بعنوان العشق الأسود – تبدو تلك أياماً جميلة أليس كذلك ؟

تخبرني بإبتسامة شاردة أنها أيضاً كانت أياماً صعبة، ربما أفضل من هذه الأيام لكن كانت صعبة.. فأسألها في أعقاب قبلة على حاجبها " متى كانت أفضل أيامي حبيبتي؟انتِ تشاركيني حياتي منذ سنوات؟فتداري وجهها تماما عني وتقول " أنت لم تكن أبدا سعيدا "

لا يصدمني ردها نهائيًا

" هل تذكرين يوم أخذت شهادة الإعفاء من أداء الخدمة العسكرية؟!يومها كنت سعيدًا "

– لا أذكر حقيقةً حبيبي.. فقد تلاقينا بعدها بحين

تخبرني أنها مازالت تشعر أني غريبٌ عنها وتفصّل : أولاً خجلك الزائد مني. ثانياً مزاحك معي.

– أو لم أكن أمزح معك أبدًا؟

أقولها فاتحاً عينيي عن آخرهما في إنكار ساخر فتضحك وأضحك.

يخيفني حديثها وأغلب خوفي في آخر الليل وأتجاهل الأمر فيغلبني النعاس البعيد.

(3)

بلا عمل ولا مال تمضي الأيام مكررة وتصنع من المدينة سجن ومن الناس قيود، وما الصبر إلا السجّان.. تداعب ابتسامتكِ خيالي وأتمنى لو كنتِ معي وأسافر في ثنايا الألوان التي بثّها خجلكِ في آخر مرة رأيتِك فيها.. وأفكر أن أتصل بكِ وما المانع؟! لا أعتقد أنكِ نائمة

أمسك الهاتف ولكن أتراجع في آخر لحظة بلا سبب.

و أتخيَّل محادثة وهمية، في البداية أحادثكِ بهدوء شديد وبنبرة منكسرة حتى يتسلل إليكِ حزني فتسأليني عن السبب وأبرع أنا في شرحه ولكن ماذا في يدكِ أن تقولي لتريحيني من عذابي.. ستتوسلين إليَّ بشأنكِ عندي حتى لا أيأس ولا أكتئب، سأتمنى بعدها أن أفصح لكِ عن حبي لكن سأتردد كثيرًا ولن أتكلم.. أنا أعرف مثلكِ تماماً أن النهاية السعيدة بعيدة المنال..

" تذكرين حبيبتي حينما تحدَّثَتْ معي والدتكِ على الهاتف وطلبت مني أن أبتعد عنك، قالت أنكِ لازلتِ صغيرة وأني كالرقم 13.. قالت أني سأفسد مستقبلك المأمول وأن والدك الدكتور يتمنى لكِ الطب أيضاً.. لم أستطع أن أجادلها حينها.. كانت على حق، أذكر أني كنت أشاهد مباراة بين ناديي القمة في إنجلترا وأن المحادثة أضاعت جُلَّ الشوط الأول، قلت لكِ سأبتعد.. لم أشعر ساعتها للحظة أني سأفقدك.. وعدنا "

(4)

حينَ تكونين معي لا أفكر ماذا سأفعل بعد رحيلكِ وصدقيني ستكون أمورا بلا معنى.. أعرف فقط أني سأشتاق إليك بعد ساعة – هل قلت ساعة؟!– وسأضع يدي عفوا – أو قصدا – على أنفي فأشم رائحتك فيجتاحني الحنين.

" هل تذكرين حبيبتي يوم حادثتك على الهاتف ولم أقل شيئا وظللت أردد اسمك اللطيف لحظات.. هل أخبرتك بعدها أني كنت في أحد النوادي مع بعض الأصدقاء.. هل أخبرتك أني كنت أريد أن أقول أني لا أكون سعيدا أبدا إلا في رحابكِ؟"

يحزنني كثيرا أنك لا تستطيعين شمَّ الروائح – كيف فقدتِ حاسة الشمَّ بالله عليكِ؟!– أتحدث عن الأزهار فتنظرين إليّ في خجل وتقولي : أحبها وأنسى أنك لا تشمّين عطرها.. لا عليكِ أنتي الزهرة.

" هل تذكرين يوم أن قلتِ لي أنك تتمني شيئا واحدا وهو أن تَشُمِّي رائحتي.. لماذا أنسى مرضك هذا؟! أنتِ كاملة في نظري دوما على كل حال"

الموعد

خطوات بطيئة تتوافق مع عقرب الثوانى والذى يشير أقرانه إلى اقتراب الموعد...قميص أزرق كلون المحيط يشير إلى سعة قلبه وحذاء جميل قيم من رقى ذوقه...نظرات حائرة من قلب قلق ورجفة يدين تُظهر شكّه المتعاظم في صحة ما يفعله... يجلس على سلالم المبنى المنشود.. ومضة تُذكره بسلالم أخرى... دام انتظاره عليها طويلا قبل أن تأتى فتاة.. كانت كل ما حلم به يومًا.. حاول جاهدًا أن لا يحطم كرامته أمامها في فشل ذريع.. تمر متجاهلة وجوده أو غير مدركة لما في قلبه من حب غريب.. طالما اعتقد أنه لن ينتهي.

ينتبه من غفلته وكأنه تذكر انحلال سلاسل صبره عن هذا الحب المنقضي... يعاوده القلق وينظر في ساعته.. ما زال متقدمًا عن موعده، إحساسه أنه لا ينتمي إلى هذا المبنى الضخم يرهبه فيحاول التأكد من سبب وجوده.. يراجع أوراقًا في يديه مرة بعد مرة.. فتعاوده رهبة أيام ظن أنها أفلتت تمامًا..أوراق كتبه التى قتلت مع الوقت كل رغبة له في التعلم والفهم، وتأخر طويل في طوابير النجاح على جميع فئاته.

أوهام شديدة الجمال والروعة طالما عاش فيه سنوات...و حقيقة صلبة تؤكد له أنه لن يكون بطلًا إلا في ساعات التخيل الغير منتهية

دقات ساعته تعلن عن موعده مع جريدة شهيرة تقيم مسابقة لمواهب الكتابة الجديدة.. مع الدقة الأخيرة ينهض مضطربًا فتسقط أوراقه.. يتذكر ضآلة

خبراته وقلة نجاحته... لا يتذكر حلم واحد حققه.. صراع طويل ذهابًا وإيابًا أمام السلم... يصمد أخيرًا ويقدم أوراقه... يُطلب منه أن يعود بعد يومين... يخرج مسرعًا مع قرار أن لا يعود وأن يعتبره حلمًا آخر تبدد.. ويغادر في خطوات سريعة مع أمل أن يختفي عن المكان..عن العيون..عن نظرة أو إحساس داخل نفسه

اليأس

أختار الصمت والخيارات قليلة والأفكار كبقايا الطعام غير قابلة للأكل والعين دائرة في سواد غير موجود، وحش مفترس يأكلك حيًا اسمه اليأس يحارب عن وجبته للعشاء يصارع أى محاولة منك للتملص وفى النهاية تستسلم.. الأشخاص حولك كخدم في قصر ملك غير موجود أنت وحدك مضرب عن العمل، حبيبة الماضى لم تعد تطرق باب خيالي آخر الليل لتسهر معي لساعات.. أصبحت تهرب من خيالى كما تهرب في الواقع.. الحياة ليس لها معنى عندى وأفكر في إنهائها لكن ربما أكتفى الآن بالنوم كحل مؤقت.

و يحدث معى ما لم أكن أتوقعه على الإطلاق.. أسمع صوتًا ينادى باسم يطالب صاحبه بالاستيقاظ فأصحو ولا أجد أحدًا.. المنبه يرن لكنى لا أتذكر شيئًا ولا أى شيء.. أضيء المصباح فتسقط أشعته على الموجودات وتبدأ الحياة تعود إلى صحراء ذاكرتى.

الفراش.. لون الغطاء.. المكتب الصغير وخزانة الملابس أتذكر أنى أعرفها لكن لا أذكر شيئًا ما عدا ما أراه..أحاول تخيّل شكلى.. يا إلهى لا أذكره، أنهض مسرعًا إلى المرآة وأرانى لكن ليس لأول مرة، عاد وجهى وعاد شكل جسدى وعادت منامتى لكن كيف لم أكن أذكر منذ ثوانى وكأن كل شيء في ذاكرتى يقبع في الظلام وينتظر الضوء حتى يدركه عقلى.

أمكث في حالة من الحيرة والإنكار وأحاول أن أقنع نفسى بأنها حالة عرضية وستزول بسرعة، ضوء خافت في عقلى تذكرت خلاله اسمى هو نفس الاسم الذى ناداه الصوت، أعرف أن هذا منزلى إحساس بالمعرفة أو معرفة

ناتجة عن إحساس قوى، عرفت أيضًا المنازل المجاورة والحى الذى أسكن فيه حينما نظرت من النافذة لكن هذا كل ما لدى.

توقفت الذاكرة عن التقاط أى خيط عن العودة إلى أى حقيقة.. مازلت لا أذكر عملى أو لماذا أعيش وحيدًا في بيت يبدو لى حقيرًا.. لا شك أنى فقير فلا يوجد أى طعام والأثاث كله مهترئ، أبحث عن أى معلومة عن ذاتى بلا جدوى.. شيء غريب هذا الإحساس المدمر أنك لا تعرف نفسك ولا تذكر أهلك ولا ماضيك وأدركت من ملابسى الرثة والشقة المتواضعة بأنه لابد وأن يكون ماضٍ أسود ضحل وحياة لا تمثل أى أهمية لأحد ربما حياة لفاشل لكن لا تقسو علىّ فإنى لا أعرفنى، أشعر بصداع رهيب وألم في المعدة ودوخة لكن جذعى أكبر من كل هذا، أخذت أبحث عن بطاقتى الشخصية عن أوراق أو صور لكن لم أجد، أبحث في الغرفة عن أى معلومة.

أرضية الغرفة كالسيدة العجوز التى تهدلت بشرتها وفقدت الدماء مع الزمن.. الفراش من الخشب صغير ضيق يوازى التراس والتراب في الغرفة كالملح في الأكل لابد منه.. أُسرع تجاه المكتب فتطالعنى عناوين "الحب الضائع" "الأمل الأخير" "سامحنى" "كانت النهاية".. عناوين لكتب فخمة.. الألوان في كل مكان :كأنك تطالع لوحة للطبيعه في أقصى اللوحة قصاصة من الورق عليها " 22 شارع النصر – المعادى "و جوارها قلم رصاص قصف.. لابد أن يكون عنوان هام لكن لا أذكره على الإطلاق ربما يجب أن أذهب إلى هناك لعلى أعرف سبب فقدانى للذاكرة.

أول ما تلحظه على خزانةِ الملابس ورقة ملصقة مدوّن عليها في شكل عمودى "خضار، لبن، بيض.." زغللة شديدة في عينى لا أستطيع أن أكمل القراءة لكن واضح أنها طلبات الشهر.. أجلس وأغمض عينى مطرقًا، أفتح عيناى لأجد دماءً على صدر منامتى! يا إلهى ما هذا.. أتفحص جسدى عن جرح ولا أجد أسارع إلى الحمام وأشعل المصباح وأنظر في المرآة.. لا يوجد أى دماء، ربى أين اختفت وكيف ظهرت؟فجأة تهاجمنى عاصفة تمطرنى دوار فأسقط أرضًا.

أنهض وأعود إلى الغرفة ويجذب انتباهى صور على الحائط.. أفيشات لبعض الأفلام.. أنظر إلى أبطال الفيلم.. أرى فتاة جميلة البطلة أحس أنى أعرفها أو ربما يحاول عقلى تذكر شيئًا عنها.. في صورة أخرى عينان بنيتان وشعر أسود رائع.. نفس الفتاة.. في الحقيقة جمالها يزين الغرفة لكن غريبة هى تلمع في صورة ثالثة بفستان أبيض وأحس أنها.. لحظة..غير معقول هذه دينا حبيبتى!

نعم أتذكر الانتظار الطويل أمام بيتها.. نظرات الرضا في عينها عن هديتى المتواضعة وأتذكر ارتسام ابتسامة هادئة عند التفكير فيها في لحظاتى الصعبة، أتذكر هذه الابتسامة لأنها ارتسمت على وجهى الآن.

كيف تكون هذه الممثلة الشهيرة حبيبة هذا الرجل المهمَل، لا.. لا يمكن لكن إحساسى بها إحساس قديم أعرفه وأركن إليه.. هكذا تكون حالتى خطرة، أسارع إلى الخزانة وأرتدى ملابسى بعد أن ارتديت قرارًا بالذهاب

إلى أى مشفى.. أتخبط كالأعمى في الزحام فاقدًا القدرة على الاتزان.. أبحث عن أى نقود ولا أجد.. لا أقوى على الحركة وأرتمى على المقعد وأحس أنى انتهيت لا محالة، لا أرى الأرض تحت قدماى وكيف لم أنتبه على الساعة.. العقرب يشير إلى الرابعة فجرًا.. أمكث بلا حراك بلا فكرة.

فجأة يُفتح الباب ويدخل رجل ضخم يرتدى السواد.. لا أذكره بالطبع أرتمى على الأرض وأطلب المساعدة في يأس والأضواء ضعيفة لا أكاد أرى وجهه لكن صوته يأتى.. موجة البحر التى تراكم الصخر ليكبّل قدماى يقول لى : " كم أنت حقير وغبى " ويلمع في يده مسدسٌ يصوبه نحوى في غير تردد.. ثلاثة دوائر متشابهة عيناه وفوهة المسدس كلها حارة ثابتة، يقول : " رصاصتى ثمنٌ للخيانة ".

المسافة بينى وبين فراشى هى كل ما عشته كيف لى أن أموت قبل أن أولد.. أصرخ فيه " أرجوك لا تفعل لا أذكر شيئًا " لكن أسمع صوت الرصاصة أُطلقت وأحس ألمًا وأرى دمائى على قميصى فأسقط وأغمض عينى، لكن لم أمت.. أفتحهما فلا أرى الدم ولا أسمع شيئًا.. الباب مغلق والرجل اختفى، لا يمكن أن يكون ذلك إلا هلاوس الاحتضار.

أرقد على الأرض لا أحس الحياة ولا أحس الموت واقع بين الثلوج أشعر بالبرد وجسدى محموم، أفيق بعد رقاد طويل وأنهض وأشعر أنى أفضل وقادر على الحركة، أرى التليفون أمامى.. إذن فلنجرب شيئًا.. أعيد طلب آخر رقم قمت بالاتصال به لعلنى أعرف شيئًا أو سبب ما أنا فيه.

أنا : آلو.. أنا..

على الطرف الآخر : آلو.. أسامة أنت بخير؟ لماذا تتصل في هذا الوقت المتأخر؟

أنا : من معى ؟

الرجل : من؟!!.. أنا الدكتور أحمد ماذا بك ؟

أنا : لا أذكر شيئًا ولا أعرفك، متألم وأكاد أموت.. من ماذا تعالجنى بالله عليك ؟

الدكتور أحمد : كيف لا تذكر شيئًا؟على العموم لا تخف أنا طبيبك الزم مكانك وسآتى إليك أمامى ساعة.

أنا : ساعة! اسمع يا دكتور فلنتقابل في 22 شارع النصر بالمعادى.

الدكتور : لماذا؟.. طيب لا مشكلة

لابد أن هذا طبيبى الخاص وأنى مصاب بكل أمراض العالم، إذا عرفت المشكلة قد أصل إلى الحل يمكن أن أستغل الوقت وأتفقد 22 شارع النصر. عمرى ينساب كالمياه على الأرض تجاه الأربعين.. لا زوجة ولا أولاد مفلس وحيد مريض لا يمكن أن تكون هذه أحلامي.. ربما لا يهم الماضى الآن فلا شك أنه ضائع هزيل.. لا أذكره ربما هذه ميزة، يمكن أن يكون الماضى هو النظارة السوداء التى تعيق الحركة بين ظلال الراحة وتحقيق الذات..

الرجل الذى حاول قتلى ربما هو جزء من أخطاء الماضى لكن لا يجب أن تكون المحصلة صفر وسواء تذكرت حياتى السابقة أو لا سأبدأ من جديد

سأبدأ من الآن.

هذه كانت أفكارى متزاحمة بشدة على باب الشقة رقم اثنين وعشرين..

أخيرًا وصلت.

باب الشقة مفتوح.. حركة مستمرة بالداخل.. الأضواء لها أرجل.. والعيون محمولة، الشقة فخمة مرتبة دقيقة المفردات، فجأة ظهر أمامى رجل قصير ممتلئ حليق الذقن ذو نظارة طبية ضخمة تحتل كل وجهه..

صرخ في وجهي: لماذا تأخرت يا أسامة بك اتصلنا بحثًا عن غيرك.. من تظن نفسك؟ألا يكفيك ما فعلته بالأمس ؟

فى هذه اللحظة بالذات تذكرت كل شيء.. عرفت سبب فقدانى للذاكرة وتذكرت الرجل القصير والموعد المبكر وتوهجت أضواء عقلي وظهر كل شيء واضحًا.. عدت الرجل القديم وفى لا وقت كنت أسامة سالم.

يدخل رجل ضخم يرتدى السواد لكن هذه المرة أذكره وأعرفه.. صوته يأتى لكن لا يخيفني يصرخ " كم أنت حقير وغبى " ويخرج من جيبه مسدسًا يصوبه نحوى في لا مبالاة وبثقة يقول " رصاصتى ثمنٌ للخيانة ".. لا لم أحاول الهرب ولم أقل حتى شيئًا وسمعت صوت الرصاصة يُطلق ولم أحس ألمًا ورأيت الدماء وأحسست السقوط.

" ستوووب ".. لم أمت.. أنهض وأمسح الصبغة الحمراء وأغادر فقد انتهى دورى في هذا الفيلم.. نعم دورى أن أظهر ويقتلنى البطل وفقط وآخذ فلوسى

من المنتج وأغادر.. نعم أنا أسامة سالم الممثل أو الكومبارس يمكن لأى أحد أن يمثّل دورى، أغادر موقع التصوير وألمح في إحدى الغرف دينا مع الماكيير.. طبعًا دينا البطلة حبيبة الماضى لكن اليوم هى نجمة وأنا لا شيء بالرغم من أنَنا بدأنا سويا مجال التمثيل، يظهر الدكتور أحمد في المكان.

الدكتور أحمد : أسامة أنت بخير ؟

أنا : أنا بخير.. تذكرت كل شيء يا دكتور.. لا أحس أى ألم الآن وأنا آسف على إرهاقك وآسف أنى لم أستمع إلى نصيحتك بشأن الدواء.

الدكتور أحمد : أنا حذرتك يا أسامة، أنت تتعرض لاكتئاب حاد .. وهذا مرض دقيق مثل أى مرض عضوى، وحذرتك من استخدام هذا الدواء وما قد يسببه من فقدان مؤقت للذاكرة وصداع ودوار وأحيانًا ألم في المعدة.. كان لابد لك أن تخبرنى.

أنا : آسف لكنى كنت أعانى للغاية.. الآن أحس أنى سأبدأ من جديد

الدكتور : أكيد أنا واثق من أنك ستصبح على ما يرام.. دعنى أوصلك لمنزلك.

أركب السيارة معه وأختار الصمت والخيارات قليلة.

مرور عابر

دَلَفَتْ بى السيارة شارع الهلالى أحد شوارع الحى الراقى في المدينة من شارع جانبى ضيق قادم من جزء مترامى الأطراف مظلم، لم يكن ذلك الشارع مقصدى ولكن زحمة السير ساقتنا إلى هناك في طريقى إلى عيادة الدكتور مؤنس النابغة الوحيد في عائلتنا المتواضعة والتى تسكن الأنحاء البعيدة المنسية، كانت السيارة تتحرك ببطء في الزحام كاشفة عن شارع مهيب وسرعان ما أحاط بنا أولياء الأمور مع أبنائهم خارجين من مدرسة الباحثة البادية الابتدائية المشتركة التى تتصدر مقدمة الشارع.. قصر قديم مئوى تحول إلى مدرسة مزينة بأعلام الوطن فوق الشرفات الملكية المقوسة المزخرفة، وجعلت أتأمل الأولاد في قمة النظافة والروعة والأناقة في زى جميل من قميص أخضر وجاكت زيتى ورابطة عنق بالأحمر الداكن ومن فورى عقدت مقارنة بين أصحاب الشعر الأصفر هؤلاء وبين أولاد مدارس حينا بشكلهم المزرى ولباسهم السمنى المتسخ وشعرهم المكسو بالتراب.

لم يفارقنى هذا الأمل القديم بأن انتشل نفسى من بيئتى الرديئة البائسة إلى عالم آخر جميل سهل راقٍ ومنظم حيث الكل يحترم الآخر والكل يعترف بالنظام ويؤمن بحق كل فرد في حياة مستقلة نظيفة.. ظل هذا الأمل يخدعنى في سنوات الصغر بأن هذا العالم موجود في الجانب الآخر من المدينة ولكن وجدت الحقيقة المؤلمة تفيد بأنه غير موجود على الإطلاق في بلدنا ولكن ظل هذا الحى بالرغم من ذلك أقرب ما يكون إلى حلمى.

تقدمنا في الشارع بحركة مملة وصرنا أمام الواجهة الفخمة لمطعم "بيتزا رويال ".. زجاج كبير مليء برسومات أطعمة جبارة وسيارات كأنها الياقوت والمرجان تصطف في حرم المدخل الهندسى.. خطر ببالى أننى يجب أن أزوره يومًا ما حتى ولو بمدخرات شهر كامل، انتقل إلى مسامعنا آذان العصر من الجامع الهائل على الطرف الآخر من الشارع لكن بدا لى الجامع مناضلًا وحيدًا وسط هذا الكم الهائل من البشر المسرعين المتكاثفين على أحوالهم.

الطريق كان مزدحماً بشكل خانق وأفكارى كانت أيضًا مزدحمة بلا سبب، كان واقعى أليمًا بدرجة تجبرنى على الانفلات خارج السيارة سرحا! منذ شهرين أنهيت دراستى في الجامعة والتى التحقت بها بكحل العين وسواد الأيام.. حلقة في سلسلة تدور وتدور بلا مهرب.. المدرسة ثم الجامعة فالتجنيد الاجبارى ثم لا شيء.. طفل يسير في حارة مسدودة بلا تفكير، كنت كارهًا الالتحاق بالقوات المسلحة لسنة جبرًا بلا فائدة أو هكذا ظننت، بذلت بعض المحاولات للإحالة بينى وبين ما أكره لكن بلا جدوى، ومنذ ثلاثة أيام كان موعد تحليل الفيروسات الروتينى قبل الترحيل إلى المعسكر، سمعت اسمى يُنادى في الميكروفون وقابلنى ضابط لم أره سابقًا يخبرنى أنى مصاب بفيروس الكبد الوبائى "C" و تبعًا لذلك لن أُلحق بهم لآداء الخدمة العسكرية، صدمة مريعة.. أحسست بدماء تمر بين خصلات شعرى لتسقط

على وجهى وبرعشات مقيتة تنتاب جسدى في انتهاك، لم أشتك في حياتى من أى علة ولم أذهب إلا لدكتور الأسنان مرة والآن أنا مريض بمرض بلا علاج! انسلخت من التجنيد والتحقت بالمرض.. الأفضل أن أراقب الشارع. تحركت السيارة خطوات معدودة فشارفتنا الجهة الخلفية لمبنى مديرية الأمن، في اتجاه السيارات العكسى رأيت فتاة جميلة في سن جامعى تقود سيارة من ماركة فورد مقفلة النوافذ يلمع قرص الشمس فوق هيكلها وبدت منزعجة جدًا من طرقات يدها على المقود، بيضاء ممتلئة الوجه بغير إفراط حمراء الخدود أنيقة بلا بهرجة ملفتة.. لو سارت في حى شندويل – الذى أسكنه – لاعتبرها الناس بدعة أوعاملوها بحقد مخبيء باعتبارها سائحة أجنبية، في الحقيقة لا أملك صورة عن فتاة أحلامى ولكن إن لم تكن هذه الفتاة فمن تكون ؟

على يسارى مباشرة فرع أحد البنوك الأجنبية ببنائه الخاص وشكله المميز.. زجاج النوافذ مطفأ أزرق، المقابض والعوارض فضية والسلالم رخامية تركع عندها أصص نباتات الزينة بالأحمر والأبيض، قد تتمنى من كل جوارحك أن تقطن في فيلا فخمة لا بل تعمل لذلك بكل القدرات المحدودة لديك وقد تبكى كمدًا وتدعو الله مبتهلًا لكن في النهاية لا يحدث.. تظن من شدة الأمل والرغبة بأنه لابد للكون أن يخضع ولابد لك أن تنل ولا يحدث.. قد تحب بالقلب والدم وتسهر بنشوة أحلام اليقظة ويسحقك اليأس في النهاية ولن

تقدمنا في الشارع بحركة مملة وصرنا أمام الواجهة الفخمة لمطعم "بيتزا رويال ".. زجاج كبير مليء برسومات أطعمة جبارة وسيارات كأنها الياقوت والمرجان تصطف في حرم المدخل الهندسي.. خطر ببالى أننى يجب أن أزوره يومًا ما حتى ولو بمدخرات شهر كامل، انتقل إلى مسامعنا آذان العصر من الجامع الهائل على الطرف الآخر من الشارع لكن بدا لى الجامع مناضلًا وحيدًا وسط هذا الكم الهائل من البشر المسرعين المتكاثفين على أحوالهم.

الطريق كان مزدحماً بشكل خانق وأفكارى كانت أيضًا مزدحمة بلا سبب، كان واقعى أليمًا بدرجة تجبرنى على الانفلات خارج السيارة سرحا! منذ شهرين أنهيت دراستى في الجامعة والتى التحقت بها بكحل العين وسواد الأيام.. حلقة في سلسلة تدور وتدور بلا مهرب.. المدرسة ثم الجامعة فالتجنيد الاجبارى ثم لا شيء.. طفل يسير في حارة مسدودة بلا تفكير، كنت كارهًا الالتحاق بالقوات المسلحة لسنة جبرًا بلا فائدة أو هكذا ظننت، بذلت بعض المحاولات للإحالة بينى وبين ما أكره لكن بلا جدوى، ومنذ ثلاثة أيام كان موعد تحليل الفيروسات الروتينى قبل الترحيل إلى المعسكر، سمعت اسمى يُنادى في الميكروفون وقابلنى ضابط لم أره سابقًا يخبرنى أنى مصاب بفيروس الكبد الوبائى "C"و تبعًا لذلك لن أُلحق بهم لآداء الخدمة العسكرية، صدمة مريعة.. أحسست بدماء تمر بين خصلات شعرى لتسقط

على وجهى وبرعشات مقيتة تنتاب جسدى في انتهاك، لم أشتك في حياتى من أى علة ولم أذهب إلا لدكتور الأسنان مرة والآن أنا مريض بمرض بلا علاج! انسلخت من التجنيد والتحقت بالمرض.. الأفضل أن أراقب الشارع. تحركت السيارة خطوات معدودة فشارفتنا الجهة الخلفية لمبنى مديرية الأمن، في اتجاه السيارات العكسي رأيت فتاة جميلة في سن جامعى تقود سيارة من ماركة فورد مقفلة النوافذ يلمع قرص الشمس فوق هيكلها وبدت منزعجة جدًا من طرقات يدها على المقود، بيضاء ممتلئة الوجه بغير إفراط حمراء الخدود أنيقة بلا بهرجة ملفتة.. لو سارت في حى شندويل – الذى أسكنه – لاعتبرها الناس بدعة أوعاملوها بحقد مخبىء باعتبارها سائحة أجنبية، في الحقيقة لا أملك صورة عن فتاة أحلامى ولكن إن لم تكن هذه الفتاة فمن تكون ؟

على يسارى مباشرة فرع أحد البنوك الأجنبية ببنائه الخاص وشكله المميز.. زجاج النوافذ مطفأ أزرق، المقابض والعوارض فضية والسلالم رخامية تركع عندها أصص نباتات الزينة بالأحمر والأبيض، قد تتمنى من كل جوارحك أن تقطن في فيلا فخمة لا بل تعمل لذلك بكل القدرات المحدودة لديك وقد تبكى كمدًا وتدعو الله مبتهلًا لكن في النهاية لا يحدث.. تظن من شدة الأمل والرغبة بأنه لابد للكون أن يخضع ولابد لك أن تنل ولا يحدث.. قد تحب بالقلب والدم وتسهر بنشوة أحلام اليقظة ويسحقك اليأس في النهاية ولن

ينهدم العالم ولن يصافحك الناس في الطرقات عزاءً ومواساة، تحلم أن تعيش حياة طويلة تُفنيها في التحدث بكل لغات الدول التى تذهب إليها وتستيقظ على مرض خبيث يشرع في قتلك.

أخيرًا وصلت تقريبًا إلى نهاية الشارع حيث عيادة الدكتور مؤنس في إحدى الأبراج الشاهقة المطلة على النيل وعندها لاحظت تزاحم ملفت عند مدخل البرج المنشود، نزلت من السيارة وتوجهت إلى قلب المنكمشين.

رأيت هناك كاميرات تصوير وميكروفون تحمله مذيعة حسناء أنيقة أرهقها تحريك الهواء لشعرها في كل اتجاه وإشارات بالاستعداد والإعادة وبعض تحيات الإجادة من المخرج وجمع من المارة يشاهدون ويشاركون، تمجبت لكن اندفعت وسط الزحام محاولًا الوصول إلى فناء البرج ويبدو أن المذيعة لاحظت عدم اهتمامى بهم فاعتقدت أنى من سكان البرج فصاحت تناديني :

– من فضلك.. ثوانى.. أريدك أن تظهر معى لحظات في تقرير لقناتنا عن ساكنى برج السعوديين.

فندت عن وجهى اندهاشة :

– لكن أنا لست...

– من فضلك. لن نأخذ إلا لحظات

و جذبتنى من ذراعى في حركة عفوية فصرت أمام الكاميرا مباشرة فصاح المصور :

- جاهز ؟

و قبل أن أرد بدأت المذيعة في الكلام :

- أعزائى المشاهدين معنا أحد سكان البرج ونريد أن نسأله عن رأيه ورد فعله تجاه احتلال حزب النصر اليمينى الثلاثة الأدوار الأولى من البرج وما ترتب عن ذلك من انتقال أعمال عنف وهجمات تتم من أنصار التيار اليسارى على البرج الحيوي ؟

كدت أن أغرق إحراجًا حينما سمعت كلامها.. لا أعرف كيف أرد ولا أُحسن أن أتهرب من موقفى، لكن فجأة تذكرت أنى أمام كاميرا تلفزيون وربما البرنامج مذاع على الهواء مباشرة ومن الممكن أن يكون المشاهدون بالآلاف فرصة لم تخطر لى على بال أبدًا فارتَسَمَت لها على وجهى ابتسامة حماسية نسيت معها وضعى وموعدى، ونظر كل الواقفين إلىّ في ترقب فقلت :

- نعم نعم الوضع سيىء هنا وقد تتضرنا كثيرًا وإنى لأفكر في تغيير محل إقامتى.

لكنى مسحت ابتسامتى بسرعة واستعدتُ تقطيبة مميزة وفتور معتاد حينما تذكرت أنهما الأنسب في مثل هذه المواقف.

عيد ميلاد

(1)- فكرة

فى تلك الليلة سهرت لوقت متأخر بالرغم من شعورى بالنعاس وانتابتنى حالة من العناد مع الذات وكأنى أقول : ماذا فعلت في يومك كى تستحق النوم؟.. تلك الراحة العذبة من تبطلك وفشلك وربما فرصة العيش في أحلام وردية جذابة لساعات، كنت أقترب من عيد ميلادى الثالث والعشرين في ظروف سيئة.. فأنا محض عاطل مفلس حديث التخرج.. بتاريخ مؤسف اجتماعيًا وسياسيًا أو ربما قُل.. بلا تاريخ من الأساس.

سخطى الشديد على نفسى في تلك الليلة تحوّل إلى فكرة بلهاء.. تمنيت فيها اسمًا جديدًا وجسمًا أقوى وقلبًا أجسر ونفسًا مفتوحة أو حتى نصف مفتوحة وتقديم شكر خاص لذاتى القديمة على المجهودات الرهيبة التى بذلتها.. تمنيت نسيان الماضى كله والبدء على البياض ومن أول السطر ولمدة ثلاث وعشرين سنة جديدة قادمة .

لست أحمق لكى أتمنى حياة جديدة لمجرد أنى بلا عمل أو مفلس.. الموضوع يتعدى ذلك بكثير.. أنا بلا هدف سواء كان ساميًا أو دنيئًا.. جسدى هزيل بصورة واضحة من رفض اكتئابى للأكل.. محاصر - وهو الأهم - بآلة تفكير تشاؤمية ومنهجية استنتاجية فاسدة.. عندما تعرض علىّ أمر ما.. تعمل

الماكينة آليا باختصار المميزات وتفصيل المساوىء وتعظيمها ثم رفض العرض.. لا أريد أن أخسر أى شيء وبالتالى لا أكسب أى شيء.

عندما عرضت الفكرة على أحد الأصدقاء فاجأني بضرورة تنفيذها.. " تستطيع أن تبدأ من الآن.. قم بتغيير كل ما تريد تغييره في نفسك.. اصنع هذا الجسم ورمم هذا القلب وأحرق هذا الماضى "

الفتاة التى تحبني قالت.. " سأسميك ياسين ".

(2)- تديّن

حمدت الله وأنا أعبر البوابات الحديدية لمدخل النادى أن حارس الأمن لم يسألنى عن بطاقة العضوية فأنا لا أجيد الكذب.. خلف البوابة طريق مبلط طويل وسط خضرة ونباتات بلا أزهار على الجانبين، سرت أتأمل الفتيات الصغيرات القادمات في مواجهتى واللائى ازدحم بهن النادى في هذه الساعة من صيف يونيو.. في النهاية يواجهك مبنى من طابقين الأول به عدة غرف تشغلها إدارة النادى والطابق الثانى للمطعم.. عبرت بابين أحدها للدخول والآخر للخروج فرأيت المناضد والمقاعد فوق النجيل الأخضر.. ورأيته جالسًا هناك قرب النهر فجذبت مقعدًا وجلست إلى جواره.

هو صديق مخلص في ظروف مشابهة سلمت عليه فطلب لى على الفور كوبًا

من الليمون.. سألته عن الحال فحمد الله وصمت وجلسنا نطالع المياه السوداء المتلألئة.. قلت له بدون مقدمات :

– أريد أن أُطلق لحيتي وأتدين ولكن لا أعرف كيف أبدأ ولا أعرف طريق، إني بعيد عن الله كثيرًا.

لم يرد وحتى لم ينظر إليّ واكتفي بشرب العصير.. دائمًا ما أصارحه هكذا بلا حذر وفي الغالب لا يتكلم كثيرًا.. قال بعد فترة :

– ابدأ من أكثر الجوانب بعدًا.

– أنا بعيد من كل الجوانب ومهما ذهب بك الظن لن تستطيع تصور مقدار تخاذلي , لقد بعدت في الفترة الأخيرة جدًا ولم أعد نفس الشخص القديم.

تنهد في صورة محيرة فأردفت :

– محتاج لصحبة صالحة للبدء من جديد لكن أين هي ؟

قال في صيغة ختامية بعد أن أطلق بصره ناحية القناطر على آخر شعاع للضوء:

– ربنا يهدينا جميعًا.. اتركها على الله.

عندما عدت إلى البيت وبمجرد أن أضأت مصباح الصالة دق جرس الباب، فتحت فوجدتها.. دخلت ومشت في صمت في الصالة الواسعة، أقول واسعة لفراغها من الأثاث اللهم إلا منضدة دائرية يحيطها كرسيان أحدهما بثلاثة أرجل وأريكة قديمة في مواجهة تلفاز يعلو خوانًا صغيرًا.. توقفت بجوار

الأريكة تحت المصباح تمامًا وقالت :

– ما رأيك في قميصى؟

قميص طويل أسود فوق بنطال جينز أزرق.. جسد سمهرى لفتاة شقراء جميلة بعينين عسليتين وشفتين باهتتين على الدوام.. الإنسان الوحيد الذى يهتم لأمرى ويُزهر بقربى.. وجودى عندها له معنى وغيابى هو الذبول.. إصرارها على حبى يدمغ صدقها بختم وجوب الاستلام والاستسلام.. لم أرد فقالت بحنان :

– ياسين ؟

فاقتربت منها وطوقتها بذراعيّ وقبّلتها على خدها الأيسر ولمست خدها الأيمن بأناملى وسألتها عن الشامة الصغيرة تحت سبابتى :

– هل تنمحى ؟

فابتسمت في تعجب ودلال وقالت :

– أحلق ذقنك.

(3)– قلب جديد

وافقت على لقائه في مقهى زهران بالرغم من ارتفاع أسعاره المبالغ فيه.. ربما لأنه نظيف.. أرض خلاء قامت لها جدران وسقف وصارت مقهى.. الجميع

يجلس في الخارج في ساحة مشتركة مع مطعم مجاور أما في الداخل فيجلس فقط هواة التلفزيون العملاق الذى يحتل مساحة واسعة على الجدار.

طالعنى راغب صديقى المضيف لحظة دخولى الساحة بوجهه الصغير وعينيه الواسعتين المجهدتين الذابلتين على الدوام وبدون حتى أن يسلّم طلب منى الجلوس بإشارة من يده.

كان فاردًا ظهره على الكرسى في لحظة سلطنة حقيقية ممسكًا قهوته في يد وعصا النرجيلة في يده الأخرى سارحًا في الفراغ.. وبدون انتباه قال :

– تلعب شطرنج ؟

و لم ينتظر الإجابة.. فرد شطرنج صغير على المنضدة وبدأ في رص القطع بحركة آلية.

مميز أنا في هذه اللعبة.. أكسب حتى في اللعبة المبرمجة على الحاسب الآلى.. كانت معظم الليالى تمضى هكذا في مقهى أو أمام لعبة مثل الدومينو.. بدأنا نلعب والمكان يزداد هدوءًا بمغادرة شطر الزبائن الذى جاء بعد صلاة العصر ليفرغوا أماكنهم للقادمين بعد قليل.. زبائن السهرة.

لا أعرف كيف خسرت.. ربما لأنى لم ألاعبه من قبل.. بدأنا دورًا ثانيًا كنت ألعب فيه بروح انتقامية حقًا.. لم نكن نتحدث مطلقًا وكنت حذرًا جدًا ومركزًا اللهم إلا بعض نظرات تجاه مقدم برنامج ساخر على التلفاز لم أستطع معها حتى تمييز موضوع الحلقة.. وكسبت، في الدور الفاصل كنت

أدافع ولذلك غضبت بشدة ولم أستطع التفكير من غيظى ولعبت بتسرع وخسرت، وتبينت عندها غضبى الحانق وكأنى بطل العالم في الشطرنج وقد خسر لقبه للتو أو كأن راغب أغبى إنسان في العالم ولا يمكن أن يغلبنى..

كنت منكرًا لحالة الغضب تلك بكل تفكيرى لكن أحسها بكل أعصابى..

طوال الطريق إلى البيت كنت أقول ما أهمية لعبة مثل الشطرنج في حياتى؟..

بالتأكيد لا شيء.. إذا لماذا كل هذا الحنق؟لا تفسير لدى إلا أنى غاضب أصلاً ناقم مسبقاً فاشل في جميع النواحى ويصعب علىّ فشلى في أتفه جانب بعد كل ذلك.. لعبة!

لم أكد أصعد أولى درجات سلم العمارة حتى وجدت صاحب العمارة بين يدى ذلك العجوز الجشع المتكبر المختفى وراء لحيته وحجاته الخمس.. قال بلا سلام :

– أين فلوس الإيجار يا أستاذ ؟

لم يستطع أن يصبر يومًا واحدًا وهو الغنى المقتدر.. لم يستطع أن يلقى السلام حتى.. الوقح لم يقدّر ظروفى ووضعى، قلت :

– غدًا أحضرهم لحد عندك.

– ولماذا غدًا؟!المهم لا تنسى الخمسة عشر جنيهًا أجرة النظافة.

أية نظافة يا نمرود يا لص ألا ترى السلم المتسخ والمدخل العفن.. أين ذهبت ثورتى وغضبى؟لماذا لا أفتك بك يا ثعبان وأريح الناس من شرورك؟قلت وأنا

أصعد السلم مسرعًا :

– طبعًا طبعًا يا حاج.

(4)– الحالة

كنت قد تقدمت بأوراقى لشغل وظيفة في السفارة البريطانية وأديت "المقابلة الشخصية" بنجاح فاتصلوا بى ليأكدوا لى قبولهم إياى ويطلبوا أن أحضر صباح اليوم التالى لعمل آخر اختبار وهو مقابلة الإخصائى النفسى الخاص بالسفارة.. " لا تقلق.. إجراء روتينى بسيط يتم لكل الموظفين الجدد بالسفارة ثم يتم بعد ذلك على فترات متباعدة فقط للاطمئنان " طبعًا وافقت.

مكتب الإخصائى النفسى يقع في الطابق الأخير من مبنى السفارة.. كان الرجل في استقبالى في الموعد.. أصلع ذو شعر على جانبي رأسه وجبهته عريضة ناصعة خمرى لامع الذقن يرتدى بذلة غامقة أنيقة.. حتى الغرفة فخمة بنية تلفت نافذتها الواسعة أكبر الاهتمام.. جلسنا متقابلين أمام المكتب وأمسك في يده عدة أوراق وطلب منى الاسترخاء.

– الإجراءات المتبعة بسيطة للغاية.. سيكون عليك الإجابة على بعض الأسئلة بصراحة تامة وتلقائية.. مفهوم ؟

– لا مشكلة

- لكن يجب عليك الإجابة على السؤال خلال عشر ثوانى فقط.. إذا تأخرت إجابتك سيكون لها تقييم مختلف.

- سأحاول.. من فضلك أبدأ.

عندها رجع وجلس خلف مكتبه وأمسك قلمًا استعدادًا لكتابة تعليقات أو شيء ما وبدأ بما سماه بالمجموعة الأولى.. في هذه اللحظة ضحكت.

- ماذا تتناول في وجبة الإفطار ؟

- لا أدقق.. الموجود.. ربما شاى باللبن

كتب كلمة أو كلمتين

- ما هو الأكل المفضل لك ؟

- لا شيء محدد.. في الحقيقة قائمة الأكلات التى لا أحبها هى الأكبر

- متى تنام ؟

- حينما أشعر بالنعاس سواء في النهار أو الليل ولا أحدد موعدًا..مم

قاطعنى :

- تعانى من الأرق ؟

- نعم في كثير من الأحيان

بدا يتحدث بنبرة صديقة للغاية وبدأت لا ألحظ ما يكتب أو ما يقرأ

- علمت من أوراقك أنك تسكن وحيدًا فما إحساسك تجاه ذلك؟

- في الحقيقة أشعر بالراحة.. لا ثرثرة تافهة من هنا أو هناك.. لا مسئولية

تجاه أحد.

نظر في مباشرة وقال : لا أحاسيس محيرة أو طاقات سلبية ؟

استغربت عبارته لكن شعرت بأنها صحيحة فقلت :

- نعم

- متى قمت بشراء آخر قميص جديد ؟

استغرقنى التفكير ثم قلت : منذ شهر ولا أعرف إذا تخطّت إجابتى حاجز العشر ثوانى أو لا

- جيد لنبدأ المجموعة الثانية.. قالها بنبرة جديدة.. من هو وزير الدفاع الإسرائيلى ؟

كان وقع السؤال غريب ومفاجىء.. أربكنى حقاً لكن جاوبت مستدركاً :

- إيهود باراك

- ومن هو رئيس وزراء المغرب ؟

ارتبكت أكثر ولم أكن أعرف الإجابة ولم أفهم الهدف من السؤال فقلت بشىء من الغيظ :

- وما علاقة هذا السؤال بالتحليل النفسى.

فقال بهوء :

- من فضلك أجب

- لا أعرف

– ولماذا في اعتقادك تعرف وزير الدفاع الإسرائيلى بينما لا تعرف رئيس وزراء المغرب ؟

إلى ماذا يلمح هذا الرجل؟إلى تطرف سياسى مثلاً؟ما هذا السؤال الغريب..

أثارتنى طريقة سؤاله المستفزة لكن قلت بنبرة مهزومة أكثر منها عصبية :

– أنا لا أفهم ما علاقة رئيس وزراء المغرب بعملى مع السفارة في الأعمال المكتبية لا تحاول التلاعب بى.. هل انتهت أسئلتك ؟

كان الرجل كلوح الثلج لم تتغير تعبيرات وجهه حتى..

– أرجوك.. أنا لم أنته بعد.. اهدأ.. الأمر بسيط. أريد أن أسألك عن حلمك الأكبر ؟

باغتنى هذا الثعبان.. حلمى الأكبر.. ما هو حلمى الأكبر؟.. لم أفكر من زمن في ذلك :

– لا أعر.. أقصد لا.. ربما السفر.. ثم سَكَتُّ لما لاحظت أنى تجاوزت العشر ثوانى بكثير وأصبحت إجابتى بلا قيمة.. حتى الرجل لم يهتم وسأل :

– ما هو أفضل شىء تقوم به ؟

اللعنة ما هذه الأسئلة؟!.. أفضل شىء أقوم به في الحياة يقصد ؟ وماذا يكون ذلك؟قلت في شرود :

– أنا أحاول.. لكن قاطعنى :

– لا يهم.. لقد حذرتك من حاجز الوقت.. لقد استغرقت في التفكير نصف

دقيقة كاملة.

قلت في سخط :

– هل من المفترض أن أحضّر إجاباتى عن مثل هذه الأسئلة مسبقًا

الطريقة.

ابتسم في تحفّظ :

– لا.. ليس من المفترض.. لقد قاربنا على الانتهاء سأقول لك كلمة واحدة وتخبرنى بأول كلمة تأتي على بالك كمرادف لها عندك.. البلد؟

لم أكن أفكر عندها.. كنت أريد أن أنتهى من هذه المقابلة السخيفة

– سكين في الظهر

– الأصدقاء ؟

– قليلون

– الموت ؟

– راحة

– الغد؟

– لا يهم

شكرًا لك.. لقد كنت في غاية التعاون.. سوف نتصل بك لإخبارك بنتيجة الفحص والتواصل معك بعد تحليل صور أشعة اكس التى التُقطت أثناء حديثنا ووضعها مع تقييم الإجابات.

– أية صور؟ولماذا؟

– لا تقلق هى مجموعة صور تحلل لغة الجسد أثناء الأسئلة.

قام ومشى معى حتى الباب بلطف بينما كنت أنا مصعوقًا.

بعد يومين اتصلت السيدة اللطيفة التى حدثتنى في المرة الأولى وأبلغتنى بكل أسف اعتذار السفارة عن قبولى للعمل حيث إن الفحص النفسى أثبت أنى أعانى من اكتئاب من الدرجة الثالثة – لم تخبرنى إذا كانت هذه الدرجة قصوى أو دنيا – وأنهم يتمنون لى التوفيق في المستقبل!

(5)– حفلة

فى المساء جاءت إلى شقتى تحمل في يديها كعكة عيد ميلادى بشمعة وحيدة في المنتصف ولما سألتها " لماذا واحدة وليست عشرين ؟" أخبرتنى أنها تعبر عن أنى الوحيد في قلبها.. جلسنا على الأريكة ووضعنا الكعكة على منضدة صغيرة.

– من قال لكِ أنى أريد الاحتفال بعيد ميلادى.. من؟

– أنا أريد أن أحتفل وأريدك أن تشاركني لتخرج من هذا الضيق

– لا.. عن حق.. لا أريد

أحاطت رقبتي بذراعيها مبتسمة :

– إذن فلنعتبره احتفالاً بمولدى أنا يوم قابلتك من سنة.. ما رأيك ؟

نظرت إلى عينيها طويلاً باحثًا بلا نهاية عن بهجة عندما قاطعتنى :

– ما أخبار الشخصية الجديدة للثلاثة وعشرين سنة القادمة ؟

لم أرد وأشعلت شمعة الكعكة واستعدادًا لاحتفال ما أطفأت المصباح.

جلتی

جاءنى وقع خطاها خارجة من غرفتها وصاعدة إلى سطح البيت كعادتها في كل صباح لتضع الماء وبعض الحبوب لفرخاتها , عندها فقط استيقظت أما هى فقد استيقظت مع آذان الفجر بلا منبه ولا وسيط فجسدها يعرف الموعد وروتين حياتها يسمح فقد نامت من بعد صلاة العشاء.

سمعتها في نومى تصلى الفجر على كرسيها البلاستيكى الدخيل على أثاث البيت القديم الأزلى وسمعتها وهى تقرأ وردها القرآنى بنفس الآيات ونفس نبضات الصوت وسمعت دعاءها الثابت الذى يبدأ بقولها " عالم بحالى غنىٌ عن سؤالى " بعدها انقطع الصوت وعدت لحلمى.

جدتى نسخة الزمن الماضى من أمى ، انتقالى من مدينتى للدراسة في الجامعة في مدينتها وفراغها بعد زواج أصغر أبنائها وضمنى ابنًا وحيدًا لها في بيت كبير من طابقين ليس فيه سوانا، ظروف قهرية ربما لكن هى سعيدة بوجودى وأنا سعيد بوجودى مع أم أمى في غربتى الصغرى.

عندما نَزَلت من السطح دخلت غرفتى وهى غرفة أعتقد أنها كانت مخصصة للضيوف فهى تقع على سلم البيت خارج شقتها ويبدو أنها تحوّلت إلى غرفة نوم بعد وفاة جدى – رحمه الله – غرفة صغيرة بها سرير كبير في مواجهة الباب تعلوه النافذة وخزانة ملابس على اليسار ومكتب معدم على اليمين ولا يوجد أى مساحات أخرى، غرفة جدتى مطابقة لغرفتى غير أن المكتب يحمل تلفزيونًا حديثًا وسريرها يحمل راديو أحدث.

جدتي

جاءنى وقع خطاها خارجة من غرفتها وصاعدة إلى سطح البيت كعادتها في كل صباح لتضع الماء وبعض الحبوب لفرخاتها , عندها فقط استيقظت أما هى فقد استيقظت مع آذان الفجر بلا منبه ولا وسيط فجسدها يعرف الموعد وروتين حياتها يسمح فقد نامت من بعد صلاة العشاء.

سمعتها في نومى تصلى الفجر على كرسيها البلاستيكى الدخيل على أثاث البيت القديم الأزلى وسمعتها وهى تقرأ وردها القرآنى بنفس الآيات ونفس نبضات الصوت وسمعت دعاءها الثابت الذى يبدأ بقولها " عالم بحالى غنىٌ عن سؤالى " بعدها انقطع الصوت وعدت لحلمى.

جدتى نسخة الزمن الماضى من أمى ، انتقالى من مدينتى للدراسة في الجامعة في مدينتها وفراغها بعد زواج أصغر أبنائها وضعنى ابنًا وحيدًا لها في بيت كبير من طابقين ليس فيه سوانا، ظروف قهرية ربما لكن هى سعيدة بوجودى وأنا سعيد بوجودى مع أم أمى في غربتى الصغرى.

عندما نَزَلت من السطح دخلت غرفتى وهى غرفة أعتقد أنها كانت مخصصة للضيوف فهى تقع على سلم البيت خارج شقتها ويبدو أنها تحوّلت إلى غرفة نوم بعد وفاة جدى – رحمه الله – غرفة صغيرة بها سرير كبير في مواجهة الباب تعلوه النافذة وخزانة ملابس على اليسار ومكتب معدم على اليمين ولا يوجد أى مساحات أخرى، غرفة جدتى مطابقة لغرفتى غير أن المكتب يحمل تلفزيونًا حديثًا وسريرها يحمل راديو أحدث.

وضعت كوبا من اللبن على المكتب وقالت في ابتسامة : " صباح الخير يا ولدى قم لكى تلحق كليتك "، كانت تلبس قميصًا أخضر بكامل طولها.. أعرفه فلأمى نفس القميص بلون أحمر.. وجهها مريح بفمها الدقيق وعينيها الغائرتين.. حركاتها هادئة.. قلت : " صباح الخير يا ستىّ، اللبن له رائحة قوية؟" فردت بأنه لبن بقرى تحضره إليها الست الجارة كل صباح.

فى الكلية أنا غارق في دراستى وفى تحصيلى وأصارع العلم وكأنه وحش خرج على عابر في صحراء قحلة فتصرعنى العمليات الحسابية والقوانين الهندسية واستنتاجات "مولر" وحتى جدال أقرانى، أسأل نفسى ماذا تفعل جدتى الآن؟

بعد أن ذَهَبْتُ مباشرةً خَرَجَتْ هى إلى نافذة غرفتها وأطلت تتأمل السماء البعيدة قبل أن تحبسها الشمس وتبادلت مع جارتها في النافذة المقابلة بعض الكلمات المحفوظة عن الحال والأولاد وصراع لقمة العيش، كانت في انتظار الباعة المتجولين بعرباتهم الخشبية المتهالكة التى تجرّها حمير أكثر تهالكًا وبؤسًا تجادلهم وتفاصلهم في الخضراوات والطماطم والبطاطس حتى تظفر بلوازم الطبخ المطلوبة.

تظل هى طوال النهار تهتم بمهمات البيت وأظل أنا في الكلية أحلم ترى ماذا كانت أحلام جدتى؟لا أتصور أن أعيش حياة كاملة من ستين عامًا أو سبعين

في دراسة متواضعة ثم عمل حكومى روتينى ثم زواج وأولاد ثم لا شيء إلى أن أموت وبعدها لا يذكرنى أحد لا بخير ولا غيره.. لا يمكن! لا أعرف ما أريد لكن أعرف ما لا أريد.

كفاكِ يا هند مراوغة.. أُحس أنكِ تميلين إلىّ، لمَ لا تسمحين لى بفرصة التقرب منك، هل لأنك أجمل من كل بنات الكلية؟هل أنا واهم؟لكن ماذا عن بقائك معى كآخر منفذى التجارب في معمل الكيمياء؟ألا ترين فعلا أنى مهتم بكِ؟اليوم أيضًا لا.

عندما رجعت إلى البيت وجدت جدتى قد أعدت الغداء.. جلسنا إلى منضدة خشبية قصيرة الأرجل..أكلَتْ لقيمات قليلة ثم جلسنا نشرب الشاى على الأريكة المفضلة لها حيث كانت تنام القيلولة قلت لها :

– تسلم يديك يا ستىّ.

– بالهناء والشفاء يا محمد يا رب يرضى عنك يا ولدى وينجحك في مذاكرتك.

– يا رب يا ستىّ.. إنتِ وصلت لأى سنة في المدرسة صحيح ؟

ضحكت ووضعت كوب الشاى على الصينية وقالت :

– خامسة ابتدائى يعنى أعرف أقرأ وأكتب الحمد لله.

كانت تنظر إلى شريط الأخبار في التلفزيون فعلمت أنها تطمئن على الأحوال في آخر النهار ثم عادت تقول :

– جدك الله يرحمه دخل بى في هذا البيت وكان عندى خمسة عشر سنة وكنت أعيش مع حماتى الله يرحمها والأولاد والبنات خالاتك وأخوالك كلهم عاشوا معى في البيت وبعد العمر ما بقى غيرى.

– ربنا يعطيكِ طول العمر يا ستىّ

رأيتها تحرك أصابع يدها بين حبات عقدها الأسود الملازم لصدرها أبدًا ولا أعرف مادة صنعه لكن الحبة مضلعة سوداء تلمع بزرقة لا تنطفئ.. كانت تحركه عند توترها أو فكرها، قلت :

– من أين لكِ هذا العقد يا ستىّ ؟

تبسمت بشدة وقالت :

– أمى أعطتنى إياه.. واحد لى ومثله لأختى أم عز.. والله وحشتنى قوى خالتك أم عز.

كانت قد تمددت على الكنبة ووضعت يدها تحت خدها الأيمن ثم قالت :

– الليلة تأتى أو أذهب إليها.. قم نم قليلًا يا ولدى.

قمت أفكر.. عاشت جدتى كل حياتها في هذا البيت في هذه المدينة ولم تطمع إلا في بقاء الأحبة معها.. أنا لا أتصور أن أعيش على كوكب الأرض دون أن أراه.. دون أن أرى العالم.. دون أن أجوب شوارع باريس وأن أجلس على شواطئ ريو دى جانيرو وأن أقف أمام البيت الأبيض وأن أنظر من نوافذ ناطحات السحاب في اليابان.. أنا من جدتى.. كيف تسللت هذه الأحلام إلىّ؟

كان هذا هو نمط كل يوم في حياتنا ولم يدركها الملل وكنت أصارعه.

استيقظت من نومى على صوت الراديو المنبعث من غرفة جدتى، قمت إلى هناك فقابلتنى جدتى أمام الباب في نظرات باسمة وأمسكت بيدى وقالت:

– العمرة يا محمد

– أى عمرة يا ستى ؟

– العمرة.. العمرة.. خالك اتصل وقال لى " ستذهبين للعمرة معى يا أمى، قدّمت في قرعة وجاءت أسماؤنا فيها "

ضحكت معها وقفزت :

مبروك يا..

ثم توارت الابتسامة خلف نظرات جديدة فيها قلق.. جلست وقالت:

– لكن السفر متعب وأنا خَربت في الأيام الأخيرة ولا أستطيع الحركة مثل زمان.

– لا تخافى.. سوف يعينك الله على طاعته.

سهرت جدتى هذه الليلة ولم تنم عند التاسعة كالمعتاد.. جلسنا نتحدث ونطالع القنوات السعودية وأقول لها " بعد أيام تسيرى مع المعتمرين وتطوفى حول الكعبة بدلًا من أن تشاهديهم في أمل غائب " وقالت أنها ستدعو لى طويلًا وأنها تحبنى خاصة وأنى وجه خير.

الليلة تَحَقق لجدتى أحد أحلامها ربما هو الحلم الأصعب والأكبر، هل

سأعيش يومًا أحقق فيه حلمى الأكبر، هل سأعيش يومًا حياة أجدر من حياة جدتى البسيطة الأحادية؟إذا كانت أحلامها صغيرة بسيطة وحققتها فهى الأنجح.. ليست العبرة في التعقيد.

في الصباح كان كوب اللبن في مكانه فوق المكتب وكانت تصلى الضحى فوق كرسيها، غطاء الرأس الأبيض الشفاف الذى يدور حول رأسها أكثر من دورة يخبرنى أنها راضية، لم أنزل قبل أن تدعو لى.. لن أنتظر.. اليوم سأكلم هند سوف أخبرها أى شيء.. المهم أن أدنو.. ، أكسر الخوف.. أن أحقق حلم! هل قلت حلم ؟!

تبعتها حتى كانت في معزل عن قريناتها واستوقفتها وقلت مباشرةً : آسف على رسائلى المتهورة..

لا أعلم لماذا لم أكمل؟هل زاغت عينى في حُسنها، كيف رأيتها أجمل ساعتها؟هل نظرت إلى شفتيها المصبوغتين؟هل نظرت إلى عينيها فأمسكنى بهاؤهما؟قالت لى : لا عليك! وغادرتنى في غفلة منى حين كنت أرتب كلمتين أخرتين، لا بأس لم يكونا ليغيرا الموقف.. لن يعيداها إلىّ.. لا أعلم لماذا حزنت جدًا؟لتعنّت هند! هل قلت هند ؟

فى صباح اليوم التالى لم أجد كوب اللبن في مكانه ولم أسمع الحركة المعتادة كانت جدتى نائمة.. ذهبت إلى الكلية وعدت متأخرًا لكن انتظرتنى على الغداء، كانت مجهدة أو مريضة لكن لم تشتكى وفى نهاية الأسبوع أطعَمْتُ

الفرخات وأحضرت اللبن من الجارة وأكلنا طعامًا أحضرته خالتى هناء..

حركتها قلت عن الطبيعى وأعطاها خالى بعضًا من الأدوية التى استخدمتها عندما مرضت منذ أشهر.

فى المساء جاءتنا خالتى أم عز في سيارة أحد أبنائها الذى غادر على أن يعود لإرجاعها.

جلستُ على الكرسى المقابل للفراش بعد أن وضعت العصير لخالتى – كما نقول لها – والتى جلست على الفراش بجوار أختها.

قالت : ألف سلامة لك يا أم محمد.. عافاكِ الله يا حبيبتي.

ابتسمت جدتى وهى تمسك يد أختها وتقبلها فانقبضت اليد وأحتضن الأختان.

قالت جدتى : الله يسلمكِ يا أختى.. أنا بخير الحمد لله لا تخافى

نظرت إلىّ أم عز ورفعت يديها إلى صدرها ثم قالت :

– أول ما بعثتى إلىّ محمد.. جئت جريًا.. أنتِ تعرفين حال رجلى.. خَربت ولا أقدر أمشى ولا أقدر أنتقل .. بسبب هذا لا آتى إليك.

ورأيت الدموع تملأ عيني جدتى :

– ربنا يعافيكِ ويبارك لكِ في صحتك ويرضيكِ بأولادك ويبعد عنك كل شر.

– والله يا أم محمد.. البنت شيماء هى التى تفعل كل شيء في البيت إذا كان تنظيف أو طبخ أو غيره.. أين البنات.. لماذا لا أراهنّ ؟

– والله تأتى الواحدة منهن تغسل وتطبخ ثم تعود إلى بيتها وأولادها آخر النهار ربنا يبارك فيهن.

تركت الأختين يواسى كلٌ منهما الأخرى وذهبت لغرفتى أضع أشيائى وأحزم أغراضى إلى شقة أخرى في المدينة تملكها أسرة والدى حتى لا أكون ثقلاً على جدتى في أيام مرضها وحتى يسهل لخالاتى خدمتها ورعايتها.. عرفت في الشقة الأخرى قسوة الوحدة واشتقت إلى البساطة والرضى واشتقت إلى وجه جدتى المريح والناطق بالصبر والحمد.

لا أنسى هذه الليلة عندما خَرَجَتْ جدتى من البيت إلى سيارة أبى ثم إلى الأتوبيس الخاص بشركة السياحة.. لا أستطيع أن أنسى النظرة التى ارتسمت على وجهها.. نظرة كأنها الفرحة المختطفة أو يمكن القلق المخبوء في طيات كل جديد.. كانت تلبس عباءة بيضاء وحجاب رأس أبيض وتقول لكل من تراه " سأدعو لك، سأدعو لكِ، لن أنساك " وأنا لم أطلب منها الدعاء ولكن طلبت لها السلامة والقبول وأظنها دعت لى ومازلت أنتظر الإجابة.

حديقة الجبل

لا أعلم أى حدود جاوزت في تلك الليلة؟حدود الملل أو حدود اليأس ووجدتنى مدفوعًا بعوامل خفية إلى ترك المنزل والنزول إلى الشارع ضاربًا بعرض الحائط مواعيد حظر التجوال المفروض في المدينة ومهملًا اشتداد قبضة الأمن ونشاط حركة الاعتقالات التى بدأت أواخر يوليو.. وتعذّر علىّ التخفى في هذا الجو الصيفى.. ولم أطق حتى "الباريه" ولا اللحية المستعارة.. ربما أحسست أيضًا بعدم نفعهما.

نزلت متزودًا بسجائرى ومشيت قليلًا بجوار مسكنى في ليل صافٍ تمامًا مع نسيم لطيف في وقت متأخر لم تمنعه قوات الأمن من العطوف بحينا المجاور لحضن الجبل.. وكنت اقترب من نهاية الجولة عندما تماسَكت لدىّ فكرة مقتَحمة أن أدخل إلى حديقة الجبل برغم خلاء الشوارع من المارة تمامًا.

الحديقة مصب الشوارع في حينا.. عامة بلا أسوار ولا قضبان.. خُضرة ممتدة وأشجار فارعَة معمرة، بسيطة التكوين بها مقاعد خشبية للاستراحة وإنارتها ضعيفة من كلوبات موزعة في بخل. دخلت مخدرًا بفتور لذيذ محاطًا بجلال السكون والوحدة ولكن ما أن أوغلت في ممرات الحديقة حتى رأيت شبح شخص هائمٍ مثلي في حذر ولم ألبث حتى رأيت آخر ثم ثالث مع رفيق فأطمنَّ رأيي على جولة قصيرة وأخفى الهلال الصغير في السماء وضوء الكلوبات الخافت – وربما الحذر والخوف – وجوه الهائمين ولم يصدر عنهم سوى همس ولم يكشف عنهم أحيانًا سوى طرقات النعال، الغريب أن

أعدادهم لم تكن تنقص بل تزيد.

لو كنت أعلم ما سيحدث تلك الليلة لآثرت اكتئابى وعزلتى على تلك الجولة الباهظة.

و مازلت أدهس الممرات الأسفلتية تداعبنى نظرات القطط من آن لآخر بعيونها اللامعة حتى انشقت الأرض عن الرجل وتبددت بظهوره نشوة النزهة ولاحت معه عواصف الخوف والمطاردة.. لم تكن نظراته فقط ولا لباسه ما وشى بأنه مخبر بل ومشيته أيضًا فصرت أنحرف مبتعدًا حتى اختبأت بين بعض الشجيرات.

طال كفاحى مع الحركات الليبرالية والثورية بل حتى أحزاب المعارضه لكن مع ذلك استطعت دومًا أن أنقذ نفسى من حملات الاعتقال وأفرّ من ويلات التنكيل وهذه ليست أول مرة يقوم فيها النظام بقمع الحريات والقبض على المعارضين ولكنى كنت دومًا أعرف وقت الانسحاب وأستشعر الهزيمة والانكسار.. وأتوقف لأواصل في ساحة أخرى.. وإن كان اليأس تمكن من إخضاعى هذه المرة فطالما بذلنا وما حصّلنا.. وكتبت علينا حياة مضطربة مشبعة بالوحدة.

لازلت أذكر تلك المرة التى أُعلنت فيها الطوارىء وهجم بعدها بأيام ضباط أمن الدولة على المنازل تعتقل هذا وتهين هذا لأكذب التهم وأضعف الشكوك وصرت في حيرة من أمرى أتوجس حتى من زيارة البقّال وأخشى من إضاءة مصابيح الشقة أثناء الليل.. حتى داهموا عمارتى في ساعة متأخرة ولكنى

كنت في الخارج لشدة حاجتي أشترى بعض الطعام ولما رأيتهم صرت أترنح في شوارع الحى حتى سقطت في أيديهم كالناموسة فى خيوط العنكبوت وقبض معى ليلتها على جارى من الحزب الإسلامى، وعند التحقيق قال لى الضابط بالحرف :

– اسمك تم شطبه من القائمة.. نحتاج لأمثالك بالخارج.. انصرف.

أما جارى فلبث في السجن بضع سنين ولكن خرج وتساءلت عندها.. هل نحن نعارض النظام فعلًا أو أننا أداة في يده يستخدمها لتطويع البقية الباقية؟ تُكبّل هذا وتسمح لذاك ثم تُبدّل الأدوار لتكون النتيجة تطويق الكل وحصارهم.

بعد زوال المفاجأة وانجلاء الخطر أصررت على استكمال سيرى لاعنا السياسة وما جنته علىّ.. وأخَذَت الممرات تُفضى إلى ممرات أضيق ثم تُفضى تلك إلى دهاليز بين الأشجار وظننت أنى ضللت طريقى لولا أن لاحت بوابة خروج عن بعيد ولمحت في غمارها تلك السيدة تجلس على أقرب مقعد من البوابة فنشط بى شبى حماس جديد ورحت أقترب ببساطة حتى أتبين شخْصها وقد انعكس ضوء الكلوب على وجهها تمامًا.. سمراء جميلة بعينين واسعتين وبشرة صافية وشعر فاحم.. لا تخفى لناظرها أناقة زيّها ورشاقة قالبها. وجذبنى إليها رابط خفى يستمد قوته من حسرة انتهاء الجولة ولا أعلم أى حدود جاوزت هنا عندما فكرت أن أتحدث إليها وأجالسها.

و صرت اقترب بهدوء حتى شملنى ضوء الكلوب فجلست في جرأة على طرف المقعد وقلت مبررًا في لا مبالاة :

– معذرة على اقتحامى لجلستك ولكنى في انتظار صديق في هذا الموضع.

لم ترد مباشرةً ولكن حارت نظراتها قليلًا ثم نظرت إلى السماء وهى تقول:

– أنت تكذب.. أنت لا تنتظر أحدًا

أحمّر وجهى إحراجًا لرد غير متوقع لكن قلت مستغربًا تمادىً :

– ربما عليك أن تعذرى مثلى إذا كذب لإجراء حديث عابر مع جميلة مثلك.

نظرت لى في استنكار وضيق لكن ما لبث أن عاد نظرها الانفلات بعيدًا..

وتذكرت أنى رأيتها من قبل واحترت أين؟.. لم أعرفَ اذا ما كانت صاحبة محل الأزياء المجاور لمنزلى أو تعمل في شركة الكهرباء في آخر الخى فقلت:

– أنت تقطنين هذا الحى.. أنا أراك أحيانًا في الصباح عند ذهابى للعمل.

لا صدى فاستطردت :

– لكن أليس من الغريب على سيدة خرق حظر التجوال وخرق حجاب الليل؟

قالت بثقة :

– أنا سيدة فوق مستوى الشبهات.

كنت معتقدًا أنها ستغادر فور جلوسى.. فقلت متشجعًا :

– شارع الحرية ؟

– لا.. بل شارع العشماوى المواجه للبوابة التى أمامنا مباشرةً

كانت السيدة شديدة الجمال حقًا واثقة الطبع حتى صوتها تكسوه نغمات رقيقة فأردت توثيق موقفى :

– أنا أسكن في شارع ضرغام.

– نعم.. أنا أيضًا أراك أحيانًا

لا أُنكر حقيقةً قلة تجاربى في أرض الجميلات وإهمالى لكل الجوانب العاطفية بالرغم من حسن مظهرى وأدبى الشديد ولم أجد ما أخسره في مخاطبة تلك الجارة الحسناء فابتسمت :

– هذا من حسن حظى.. أنا أعمل في دار شهاب للنشر والتوزيع.

ابتسمت في فتور وقالت :

– سيتبين

– نعم ؟

قالت وهى تهم بالقيام :

– أقصد أنّه بذلك سيجمعنا العمل مرة أخرى.. أنا أحتاج لطباعة مجموعة كتب تعليمية وإنه لأمر طيب أن أتعاون معك.. ما رأيك أن ألقاك غدًا صباحًا في كافيتريا الباشا القريبة

تفاجأت من عرضها ولكن قلت مرحبًا :

– سيكون ذلك سعادة لى بشكل خاص.

– في تمام الحادية عشر.

قالتها وغادرت ولم تعقب واختفى ظلها كالبرق وجلست حائرًا في مكانى

معاتبًا نفسى عدم قدرتى على تذكر اسمها.

ثملتُ سريعًا من فورة الأحلام وطمعت بالأمل في تعويض الأقدار عن شقاء الرحلة.. وأجمعت أمرى على التوبة عن السياسة وإن لم يكن هذا الوقت المناسب فمتى إذًا يمنح الزمان رجل مثلى الحب والزواج والأولاد؟

و يبدو أنى نمت ساعتها في جلستى في الحديقة فأنا لا أذكر عودتى إلى المنزل ليلتها وفى الصباح لم أذهب إلى عملي وأذكر ارتدائى حلة جميلة واستخدامى لعطر ثمين.. وفى موعدى دخلت كافيتريا الباشا – ولم أكن قد زرتها سابقًا – فوجدتها خالية تمامًا إلا من صاحبها يمسح المناضد ويعيد ترتيب المقاعد ويفتح النوافذ التى تملأ جدران المكان.. فاخترت منضدة في ركن هادئ، وسرعان ما اقتحم نور الصباح كاشفًا كل غموض.. وانتظرت قدوم السيدة الجميلة في شوق ولكن لم تظهر، في تمام الحادية عشر والربع دخلت فرقة من ضباط – عرفتهم – يرتدى بعضهم الزى الملكى في هدوء واثق وأحاطوا بى في لحظة وقال صاحب النسر فيهم :

– أنت السيد منير مراد ؟

فقلت بكل استسلام وفى أقصى ذهول :

– نعم.. أنا هو.. ما الأمر ؟

– اتفضل معنا.

الخجل

جذبني إليه شيءٌ ما بمجرد جلوسي على الأرض ولما أسندت ظهري إلى حائط المسجد – ألتمس راحةً من إعيائي – وقع في مجال المشاهدة تمامًا..
كان المسجد قد خلا تقريبًا بعد انتهاء صلاة العشاء بينما ظل هو ثابتًا في مكانه في الوسط محتفظًا بجلسة التشهد الأخيرة تحت قبة المسجد مباشرةً حيث يبتعد السقف إلى أقصى حد وحيث تتدلى فوق رأسه السلسلة الحديدية الطويلة التي تحمل في نهايتها الثرية العثمانية الشهيرة.
لم يلفتني أناقة بذلته ولا حسن مظهره وإنما تعجبت مما بدا على وجهه من إعياء وحُمرة وما أغرق وجهه من عرق في جو بارد قارس.
لابد وأن الرجل يطلب من الله أمرًا أقرب للمستحيل حتى يتكبّد كل هذا الهلع والتضرع المضني.. ربما ملأ صدره الجو الروحاني للمسجد فأخذه الوقت.
كنت أقتل بعض الدقائق حتى يأتي موعدي مع حسن باشا عدنان.. أي موعد مع عقيد مثله.. الأفضل أن أقول شحاذة كلمة.. كنت قد طلبت منه أن يتوسّط لي عند نسيبه صاحب شركة السياحة حتى يقبلني للعمل معه.. موظف استقبال لا أكثر وأتمنى أن لا يكون قد نسي الأمر برمته.
كان وجه الرجل يتقلص كل بضع دقائق في علامة واضحة على الضيق..
يغمض عينيه للحظات ثم يفتحهما عن آخرهما في نظرة تعجّب ثم يعود فيغمضهما.. دقيق القسمات صغير الأنف والفم مثلث الوجه.. لا بالأبيض

ولا بالأسمر لا بالنحيف ولا بالمتلئ.

انسحبت البقية الباقية من المسجد ولم يبق سوايَ أنا وذلك الأنيق.

لا آتي إلى هذا المسجد كثيرًا – ربما هي المرة الثانية – وصدقًا لا آتي إلى غيره، لم أستطع أبدًا الانتظام في الصلاة خلال أي فترة من حياتي، ربما أصلي الظهر والعصر ومغرب وعشاء اليوم التالي.. لو أردت الحقيقة لأخبرتك أني أذهب إلى المسجد في طلبٍ ما وظيفة أو مصلحة، ربما في أمر متعسر يحتاج إلى دعوة أو ذهن صاف.

بدأ الشاب يبكي بصوت مكتوم عندما انطفأت الثرية وبعض المصابيح، وحسبتها دعوة من شخصٌ ما لمغادرة بيت الجليل فقمت ببطء مثقل الخطى ولا أتهم أحدًا غير الشيطان في إيقاع صورة البنت نادية بنت عم سالم البقال في مخيلتي في تلك اللحظة بجسدها الملتهب ووجهها الأسمر الجميل وشفاهها الحمراء وكأنه يذكرني بمقابلة مؤجلة

عند مروري بالرجل في طريقي إلى الباب أذكر أني سمعته يقول وسط نهيج بكائه.." أنا خجلان ".

الإثم

رأيتني جالسًا في سيارتي بلا أي مقدمة أو ماضي في ظلام غير مكتمل بجوار فتاة.. ربما ليست جميلة جدًا ولكن أذكر أنها كانت تُعجبني وتغريني ولا أدري تحديدًا كيف ألتقيتها ولا متى.. ورأيتني أمسك يدها في حالة هيام حقيقي لكن لا أذكر بالتحديد جُلّ ما كانت تقوله لي، ولم يخلو الطريق من عابر ثقيل الظل يبطء خطواته إذا ما حاذانا ناظرًا داخل السيارة بلا خجل.. ولم يكن خافيًا كثرة التقاء الأحبة في هذا الموضع وبرغم ذلك تأكد العابر بكل بساطة من التزامنا الأدب كواجب مُكلّف به من قبل طرف خفي.

و نازعتني نفسي في أحيان إلى تقبيلها لكن لم أفعل ثم مرت فترة ليست بالقصيرة من الشرود بانت بعدها الفتاة أصغر بل تراءت لي طفلة وكنا على نفس الحال الأول من التقارب والانسجام فشعرت بالخجل وفترت حواسي وتوتر الموقف إلى حين..

ثم رأيتني أتجول في شارع "ع " بالدقي وقد ملأت أنفي رائحة دجاج مشوي قادمة من مطعم قريب وكنت أشعر بجوعٍ شديد وكأني لم أذق طعامًا طيلة أسبوع وبحركة بديهية تفقدت جيوبي كلها بحثًا عن أي نقود فخاب رجائي بالكلية.. فارتميت على الطوار المواجه للمطعم بلا فكرة.. وبدأ الجوع يعتصرني عصرًا في حين ظلت الرائحة تخترق الأنف والعقل.

و نازعتني نفسي بعد برهة إلى الانقضاض على ذلك السمين الذي يضع الدجاج داخل أسياخ الشي لأقتنص منه قطعة أو اثنتين لكن لم أجسر على

ذلك لفرط قوته مقارنةً بهزالي.

وعند أعلى درجات اليأس لاحت تلك السيدة العجوز على مرمى البصر تجلس على الأرض في جلبابها الأسود وحجاب رأسها الكاسي وتضع أمامها قفصًا مقلوبًا من البوص وفوقه بضعة أرغفة من الخبز الساخن.. ولما كنت في أشد حالات العوز والانهيار صرت أراقب حركاتها ولفتاتها بعين الذلة وتركيز الجوع وبدأت اقترب منها في أحيان وابتعد في أخرى بحثًا عن موضع وعن ضعف.. وفي لحظة اضطراب وفرط إثارة اختطفت من فوق القفص رغيفاً وهربت.. وقضيت دقائق خمس أؤكل الرغيف في زهد بينما تلفح عقلي رائحة الدجاج.. ثم ما لبثت أن ارتميت على ظهري عند زاوية الشارع من الجوع الصامد بعدها بدقائق.

و بلا أدنى فكرة عن سابق أو تالي رأيتني في مكان أشبه بالجامع لكن بلا سكينة أو راحة، وطالعت أمامي شيخًا جليلاً مهيب الجانب في عمامة وقفطان أسودين يركع عند قدمه عبد شديد البأس في قميص أبيض وبنطال أسود.. لم أتمالك نفسي لإرهاق مقيم فارتميت على ركبتي عندما تكلم الشيخ:

– فيمَ كان نيلك من الفتاة الصغيرة ؟

جاءت نبرته حادة غاضبة ولم أستطع أن أجيب أو أرد وحلَّ عليَّ ندم عظيم وإن كنت جاهدت خوفي لأنطق أخيرا :

– لم أفعل شيئاً

ابتسم في سخرية ثم قال بنفس النبرة :

– وفيمَ إذًا كانت السرقة ؟

أخذني بسؤاله دوار عاصف قلّبتُ أثناءه عيني في المكان لأول مرة فطالعت الجدران والسقف المرتفع والنوافذ المغلقة والباب البعيد على اليمين وبالطبع لمَ أجد في حلقي ماء إجابة ولا صفير كلمة فوّجه الشيخ كلامه هذه المرة إلى العبد في نبرة آمرة :

– أعده إلى السجن.

فاتجه العبد إليّ بهدوء وثقة.. وبينما كنت أحاول جاهدًا أن أفهم موقفي استسلمت إليه.

لسببٍ ما

سأل: " من لم يحضر الآلة الحاسبة؟" بصوت هادىء فهو صاحب هيبة — لا خلاف — وقف كثير من التلاميذ وكنت منهم.. قال " لقد حذرت " وطلب من المخالفين الخروج إلى جانب الباب بمحاذاة لوحة الدرس "السبورة" وأمسك عصاه الخيزران وبدأ في الضرب.

بنفس الصورة المنظمة كان يفعلها.. يطلب منك أن تمد يدك وتفردها ثم يهوي بعصاه الذابحة.. ولقد رأيته يضغط على أسنانه ويهوي بحمل جسده — قليلاً أو كثيرًا — مع عصاه حتى يؤلم.

لم نكن صغارًا جدًا كنا في العام الثاني الإعدادي أو ربما الثالث، وقتها قلت ما أهمية الحاسبة في فهم الدرس ولماذا يتكبد هذا العناء في عقابنا وكأنه يكرهنا أو يتعمد التعنت.. لقد حصلت على الدرجة النهائية في الرياضيات في عامها بلا آلة حاسبة وربما بلا حضور أغلب حصصه.

الآن يبدو لي الأمر طبيعيًا منطقيًا ولا ينافي أي عدالة —غير موجودة أصلاً— في دنيا البالغين.. فالمعلم يحتاج لتأديبنا لسبب أو لآخر — سواء كان السبب يخصه وحده أو يرتبط بفعلٍ ما اقترفناه — ونحن نحتاج للتأديب من وقت لآخر — أردنا أم لم نرد، استحققنا ذلك أم لم نستحق — وهكذا تسير الأمور دائمًا.

النافذة

حينما صعد إلى الأتوبيس..كان الأتوبيس شبه فارغ فلم يجد مشكلة في الجلوس إلى جوار نافذة وبدا الأمر مهمًا لهذا الرجل الأنيق، كافح خجلاً خفيًا وسألني عن ثمن الأجرة فعرفت أنه ليس من سكان الإسكندرية، بالطبع الرجل يريد أن يشاهد الشوارع والناس من خلال النافذة كما يفعل جميع المصطافين، وكان هذا الشعر الأسود اللامع وتلك البشرة البيضاء المحترقة بسمرة خفيفة تخفي الكثير من النقاء والكبرياء.

ما لبث أن امتلأ الأتوبيس وتحرك وما أن خرج إلى "الكورنيش" حتى أصاب الأنيق امتعاض كالزوبعة في الفنجان والسبب أن زجاج النافذة كان شديد الاتساخ مما حجب الرؤية أو بالأصح أفسد الشوارع والمناظر والوجوه وصبغها بفوضى لونية وفجاجة مقيتة.

كنت أضحك وأنا أرى الغريب يتردد بين رغبته في مسح الزجاج وخوفه من اتساخ يده إذا ما فعل، وراح يزفر في نفاد صبر ولاحت منه التفاتة إليّ كالمستغيث فقسوت عليه بنظرة معاتبة فما كان منه إلا أن تشجع وأخرج يده إلى الخارج ومسح النافذة بلا توقف.

بدا الرجل راضيًا عن نفسه لبرهة فالرؤية اتضحت تمامًا لكن سرعان ما أدركه الحنق والإحباط حينما أدرك أن الفوضى والفجاجة ما زالت هناك.

الفهرس

* * *



أختار الصمت، والخيارات قليلة..

والأفكار - كبقايا الطعام - غير قابلة للأكل..

والعين دائرة في سواد غير موجود،

وحش مفترس يأكلك حيًا اسمه اليأس..

يحارب عن وجبته للعشاء..

يصارع أي محاولة منك للتملص، وفى النهاية..

تستسلم!

